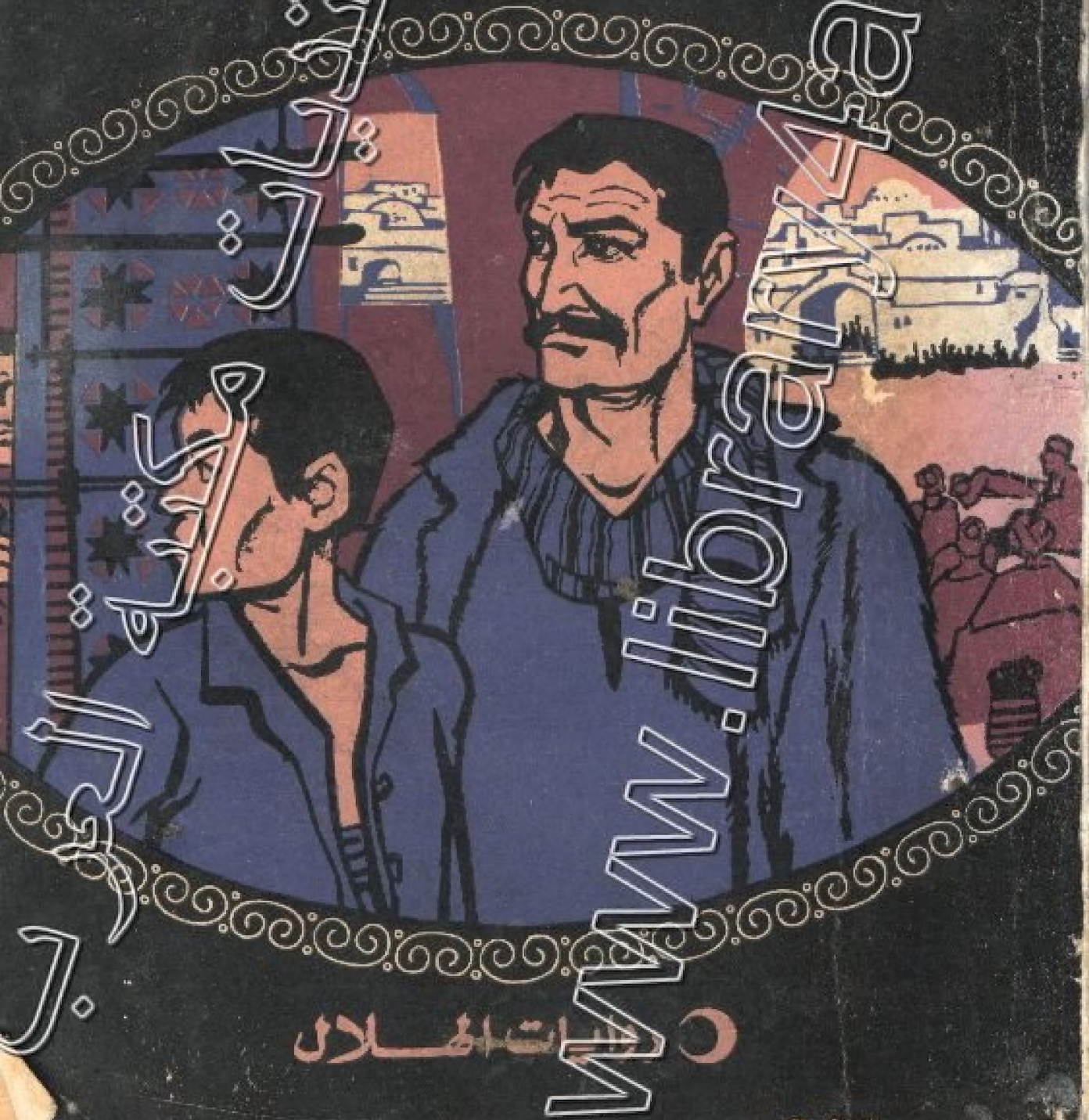


مترجمة
الدكتور سامي الدروبي

مختار

النول



روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

No. 264 — December 1970

العدد ٢٦٤ - ديسمبر ١٩٧٠ - شوال ١٣٩٠

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النعش

بيانات إدارية

نمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ أليم - عن الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ١٢٠ قرشاً في الأردن والعراق ١٢٠ فلساً

قيمة الاشتراك السنوي : ١٢ عدداً في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى ، والآخرى ١٠٠ قرش صاغ - في سائر أنحاء العالم ٥ ونصف دولاراً - شللاً والقيمة تزيد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحواله بريدية . في الخارج يتحول أو بشللاً مصرفى قابل الصرف في « ج.ع.م » - والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العائلى - وتضاف رسوم البريد الجوى والسجل على الأسعار المحددة عند الطلب

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ - عشرة « خطوط »

الحكايات

حكايات

حكايات



روايات

محلّة شهريّة لنشر القصص العالمي

www.library4arab.com

مكتبة

مكتبة

الفلاف بريشة
الغنان هبة عنايت

www.library4arab.com

حکایتیں

الغول

بقلم

محمد ديب

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار النشر

www.library4arab.com

مكتبات

مكتبات

www.library4arab.com

أطار عمل الستارة التي تسد مدخل الغرفة بظهر يده ، ولكنه ما إن أجاز العتبة حتى توقف لايجزؤ على التفتت . وظل جامدا في مكانه ينظره العنشة ، كان يحس أن مزقا من الليل قطعها الأمطار لا تزال في قفلة عينيه . أن ثيابه المتهدلة عليه تعطي مبللة ، ونعلاه المنقوشان تطبعان على سدة الباب ربيو . واسعة وحلة .

انتقلت نظراته من أمه الى أختيه . كانت اختاه ترمقانه في بوسه يسمن وجهه . كانت أمه تحتل ركنها المألوف ، وقد تهلل على عينيها منذ العتيق . أنها تبدو غارقة في أحلام عميقة . وكانت الجدران المارقة المطلية بالكلس تلتمع تحت أشعة نور الكهرباء فلما رآته ، نهضت بشة واحدة ، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة :
- ما ابنى هذا الليل ، ل كلب من كلاب الشوارع .
كان واضحا أنها قد نسيت لجامها ، وليث عمر ينظر إليها وهي تصرخ صراخا ما ينفك في اشتداد :

- نعم ، كلب من كلاب الشوارع ، كلب من كلاب الشوارع .
ودفعت حوافي مندليها التي تزعجها ، وتابعت تقول :

- أين كنت الى هنا الساعة ؟ أين ؟ أين ؟ قل لي .. هاي هاي ..
أومزق وجهك أم أمزق وجهي ؟ لقد نبت فيك ريش الشر ..
انظرن أنك أصبحت رجلا ! انظرن الى كل شيء قد أصبح مباحا لك ؟
يمينا لن يكون هذا .. لا تزال بي قوى تكفى لتحطيمك .. أنا هنا
الأمرة الناهية ، وستظل أخافض رأسك ما احتجت الى البقاء تحت
هذا السقف . هل فهمت ؟ أما أن تعود الى البيت في وقت مبكر ،
وأما أن ترجع الى الشارع .

لم يكن الفتى يلاحظ قول الأم التي تسقط من ثيابه وتشكل
بركة عند قدميه . كان قلبه يخفق خفقانا سريعا . ترك لأمه أن تفزع
كل ما في صدرها من كلام ليس هذا كله جديدا .

وقالت الأم آخر الامر مندرة
- لسوف تسلم بالاقلاع عن حياة الحياة التي تعيشها .

كان عمر يمضي في كل مساء يجمع بعض نثارة الفحم حول المحطة بين سكك الحديد . هذه هي السبيل الوحيدة الى قليل من الوفود في البيت .

ونض عنه حقيبتيه دون ان يتبس بكلمة . انه لا يرغب الا في شيء واحد : ان يدفء يديه المتجلدتين .

وتذكر عالم الليل الواسع الذي انبجس منه . كان الليل قد خيم منذ مدة طويلة ، وكان المطر ينهمر ، ينهمر مدرارا .

وعادت الام الى مكانها ، وامرت ابنتها عيوشة ان تضع المائدة ، فقامت الفتاة ، فأتت بالمائدة ، ووضعت عليها قدرا ونصف رغيف

من خبز أسود . وأخذ الأربعة يغمسون أصابعهم في المرق صامتين ، فما هي الا لحظات حتى كانوا قد التهموا عشاءهم ، وهو فجل مطبوخ

بأمعاء ، فتولت الاختان رفع المائدة ورقدوا بعد قليل :

لايستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة في الظلام الدامس . لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد الى جفنيه سبيلا . لاشك أن وقتا

طويلا قد انقضى على هذه الحال . كان البرد يتفد في جسمه كالسكين ، فيبقيه نصف يقظان . وفي رأسه كان يهدر سيل من

الصور .

ها هم أولاء مرتلو القرآن يسرون امام جنازة . كان عمر يمشي في اثرهم مؤمنا بأن كل خطوة يخطوها وراء حملة النقش تسر الميت .

ان الموتى في هذه الايام كثر . وعمر لا يفوت من الجنائز الا تلك التي يصادفها أثناء جولاته البعيدة . انه يشعر نحو كل واحد من هؤلاء

الموتى بشيء من عطف . وكان قد حفظ فقرات من نهج البردة ، فهو يتلوها مترحما على

أرواحهم .

وها هم أولاء المتسولون الشاحبون المهزولون يستحثون الخطا تحت المطر المنهمر . وهذه صور أخرى تجتاز ذهنه أيضا . لقد

قالت له عيني منذ أكثر من سنة : « تعلم مهنة من المهن ، فلن تجدك كتبك نفعا » . كان ذلك في نهاية الصيف الذي سبق الصيف الماضي .

كانت عطلة الصيف قد انتهت . فأذعن الفتى لرأى أمه ، ولم تدس قدماء المدرسة منذ ذلك الحين . لقد طالما رددت أمه على مسامعه

انه أصبح في الثالثة عشرة من عمره ، وأن كل ساعة من تعطل فهي وقت ضائع . وكانت تضيف الى ذلك قولها : « لقد صبرت كثيرا » .

ومن كثرة ما سخرت أذناه من اللوم والتقريع ، بدأ يعمل صبيًا
في دكان أحد البقالين ، ولكن السلطات لم تلبث أن أغلقت الدكان ،
وزجعت بصاحبه في السجن .

لقد صاحت يومئذ عيني تقول : « يعاقبون صغار المتلاعبين ،
ويتركون كبارهم ... » .

وكان لابد من البحث عن عمل آخر للفتى . ولكن سنة برمتها قد
انقضت دون أن يعلق بالصنارة شيء . ليس عمر الآن إلا صبيًا
معترا ، يتسكع في الشوارع ، لا يلجئه لجام ، ولا يبالي الوقت ،
ولا يكثر للجو ، ولا يحفل بتقريع أمه ...

أصفى عمر إلى الاهتزاز الذي يزعزع البيت . الليل يهدر هديرًا
قويا . والمطر لا يزال يهطل . ووراء هذه المهمة يقصف الرعد ،
فكلما شق السماء مرة ، تنزل البيت ، فتراءى للمرء أنه متداع
متى قصف الرعد مرة أخرى .

أحس عمر فجأة أن هناك شيئًا يتربص في الظلمات . شعر من ذلك
بقلق . وذكره هذا بأمه التي تشم الشقاء في كل شيء ، وتكتشفه
بحدسها الممزق في كل شيء .

قال لنفسه : « ما بال أمي التي ترى العالم مشحونًا بنذر السوء
ودواعي التطير (إذ تؤول كلمة عارضة ، أو حكمة في الأذن أو رائحة
خفيفة في الجو ، على ما يشاء لها الهامها) ما بال أمي لا تنتبه إلا إلى
علائم الشر وما يمثل الكوارث ؟ » .

فما كاد يكمل تمتعة هذه الكلمات حتى انتصبت أمه واقفة قربها .
قال يتوسل إليها قلقلًا : « أرجوك يا أماه » . واستيقظ . يا للحنان
الذي ظهر في قوله : أرجوك يا أماه . ما كان لعمر أن يصدق أن من
الممكن أن يظهر في كلامه هذا الحنان . كانت الكلمة تهتز في نفسه
بقوة تهوله .

أصبح الآن لا يأمل أن يعاوده النوم . وكان قد ارتفع صوت
آخر في ظلام الليل يقول :

« لاتخافي يا أماه ، أضرع اليك . . أنا أعرف أن هذا الخوف يطوف
طائفه في النفس أحيانًا . أنت تسمينه القدر . ولقد طاف بنفسك
منذ لحظة على كل حال . شعرت به من الحزن الذي استولى عليك .
ابتهل اليك يا أماه أن تعرفي أن هذه القوة لا وجود لها ، وأن الحياة
ليست جحودًا . لاتكفري بما في نفسي باسم ماتحملينه من عاطفة
الأمومة » .

هل التوسل هو الذى يمكن أن يلين ارادة عيى ؟ لم يستطع عمر
ان يمتنع عن ترديد هذا التساؤل على نفسه . وكانت حدود الغرفة
تتراجع امام عينيهِ ، بينما اشتات افكار اخرى تطير من رأسهِ .
عصافير مبشرة تهوم الى غير نهاية ، خفيفة خفيفة ، ليس لريشها
وزن . . وكانت العصافير تمحى بدورها ، وتجرى على جسمهِ
ظللا متهرية . . .

لقد اخذته سنة من نوم . وكان دوى العاصفة يفنى فى فضاء
الليل . كان المطر يهدر بغير انقطاع ، وكانت رياح شديدة بعيدة
تهز اركان المدينة . وفجأة خيل اليه انه يسمع . . انتفض قلبهِ .
لاشئ . لقد انقطع المطر . وخيم على دار سبيطار هدوء لاتعكره
نسمة . ان الهواء يحمل برودة رطبة ، شعر الصبى بانفاسها تتسلل
الى الحجرة من تحت الباب . عاد الى الصبى وعيه ، فتذكر ان عيني
وبنتيها يرقدن جنباً الى جنب قربه ، فوق فرش القش الممدودة على
الارض . كان عمر ، الراقد على مقربة من امه ، يتلقى منها بعض
حرارة . رد اليه هذا شيئاً من الثقة . ونام من جديد

كان بخار متموج قد انبجس من الارض ، فسرعان ماسد جميع الطرق . سكنت الريح وانقطع المطر .

لقد احتضن الضباب المدينة طوال الليل ، حتى اذا طلع النهار في قد ، كانت شمس فتية تسطع في سماء كاثون الثاني . انها تلحق الشوارع . العربات تجري على الارض صاخبة . واغان تنبع من حوائط الخشب . ان كل شيء يبدو منفصا ، حتى النداء الابح الذي يخرج من صدور الباعة المتجولين

ما من شيء كان يدع للمرء ان يتنبا بعذوبة كهذه العذوبة الفجة . لقد نبت هذا الانتعاش الفرح في عالم اسود . ترى هل عزم الشتاء على ان يهجر سرباله الثقيل ؟ هذا هو الشتاء الثالث بعد اعلان الحرب . ان الامل في ايام افضل وأعدل قد هدهد اهل تلمسان .

وفي هذه الاثناء انما اصبح الناس يلتقون بأولئك الاشخاص الذين يشبهون ان يكونوا أشباحا مخيفة . ان هذا الجمهور من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال يجتاح جميع الاحياء شيئا بعد شيء . ان أكثرهم من اصحاء الابدان الذين ليس بهم آفة . وكان هؤلاء البؤساء التائهون لا يحسون نظرات السوء التي تمتلئ بها أعين السكان عند مرآهم كان جوابهم على المعاملة الخسنة التي يستقبلهم بها الناس ، ويلاحقهم بها رجال الشرطة ، هو ألا يحلفوا ولا يبالوا . ان قوة يجهل المرء شدتها تدفعهم الى امام .

كذلك انتشروا هذا الانتشار المحروم من الحياة حرمانا غريبا ، انتشروا في تردد ، وفي غياء وكلال

تساءل الناس : اليسوا يتدفقون منذ مدة من الوقت ؟ ان الشوارع الكبرى والطرق العريضة والميادين تفيض بهم . لا شك في أنهم تسربوا الى المدينة بفضل الايام الماطرة الماضية !

لم يعرف احد في ذلك الوقت ما الذي كان يجذبهم الى المدينة ! . انراهم جاءوا يلتمسون ما قد يسد رمقهم ؟ . ولكنهم اذا فرضنا انهم وجدوه ، لا يقيمون ولا يعودون الى الكهوف التي لفظتهم . انهم يلتصقون بقلب المدينة . لذلك كان الناس لا يفهمون من الأمر شيئا .

آذان يحدوهم نوع من حب الاطلاع ؟ لا . . . ذلك انهم كانوا ، حين
يفدون ، لا يريدون على ان يستقروا حيث يتراءى لهم ، ثم ينظرون
الى كل شيء بعيون منطقتة .

على ان هؤلاء المتسولين كانوا اناسا رفاقا لا يسيئون الى احد
يجب ان نعترف بانهم لا يحدثون شيئا من اذى . انهم ينظرون الى
الكبار والصغار الذين يمرون بهم ، في هدوء بغير اكتراث . انهم
ينتظرون . ولكن ماذا ينتظرون ؟ لا يعلم احد ذلك . ثم يستأنفون
طوافهم في الارض على غير هدى . ويغامزون في المكان الذي يفاجئهم
فيه هبوط الليل . فاذا هبت ريح شديدة شدوا اسماهم الرثة على
اجسامهم ، ووضعوا جماجمهم على حجر او درجة ، وناموا .

اصبح الناس يلتقون بجموع متزايدة منهم ، في الطرق المسدودة ،
وتحت الافاريز ، وحول المتاريس ، امام الحمامات العامة ، وعلى
سلالم السوق المسقوفة ، وعند اسوار « مشوار » التركية ، وقدام
اروقة الخانات ، كانت شخصوهم المتفككة ، السمراء ، الوسخة ،
تسكع في جميع الشوارع . انهم يجرون انفسهم في كل مكان . وكان
بعضهم يحمل على الظهر بعضا آخر أصبح عاجزا عن مواصلة
السير . حتى اذا قطعوا بهم بضع خطوات جلسوا على الارصفة
لاثنين . كانت المخازن لا تضم في واجهاتها الا اشياء لا فائدة لهم
منها . ومع ذلك ، فهناك انما كانوا يستقروا وينطفئون انطفاء
الشعل الشاحبة .

وكان يحس المرء من حين الى حين انهم يبحثون عن شيء . ان
حركاتهم أشبه بحركات زحف لا يدرك . ثم لا يلتفتون ان يعودوا الى
سكونهم . انهم لا يمدون جميعا ايديهم . وما لم يتعرض لهم احد
سكان المدينة بسوء ، فيضطروهم الى الترحيح ، فانهم يظلون قابضين
في مكانهم ، متجمعين على انفسهم ، يرمقون بأبصارهم جموع الناس
وهم ينتقلون .

وكان بعضهم يظل نائما بغير انقطاع ، متلفعا كالقنفذ ، فاذا اذاد
احد ان يحسن اليه كان لابد له ان يميل عليه ليديس له القرش في
راحة يده . ان هؤلاء المتسولين الجدد لا يسمع احد أصواتهم . من
هذه الناحية ، طرا اذن شيء من تبدل .

اتراهم كانوا يجيئون من الضواحي المحرومة الفقيرة ؟
ربما . . . كانوا يجمعون بضعة دربهومات ، او بعض قشامات
الطعام ، من مجرد اربيات المدينة . ولكن لماذا كانوا لا يعودون بعد

ذلك ؟ ما بأنهم يتشبثون بالمدينة كأنهم ملتصقون بهذه المباني التصاقا لا فكاك منه ؟

وسرعان ما أصبح أى حاجز من الحواجز عاجزا عن صد هذه الاندفاع القوية التى تقود هؤلاء القوم الى أكثر الأحياء حشمة ، وإلى الشوارع التجارية ، والأجزاء الراقية من المدينة . ولا يزال الناس لا يدركون ما الذى يجنيه هؤلاء الرجل من التردد على هذه الأماكن . انهم لم يخلقوا لها ، ولا يمكن أن تناسبهم . أنراهم كانوا يدركون ذلك على أقل تقدير ؟

المدينة غارقة فى نور ساطع ، وكان الطبيعة تنوى أن تطيل هذه الهدنة المضئنة . كان البرد قارسا ، ولكن الشمس تتلألا . والأسر التى يتعاطى جميع أفرادها مهنة الحياكة كانت فى هذا العهد ، ربما أكثر من أى عهد مضى ، لا يحصى عددها : الرجال معلقون وراء أنوالهم العتيقة ، والنساء تندف الصوف أو تغزله . كانت عيني نفسها تحصل من حين الى حين على جزر ملطخة بالدهن مشققة بالتراب والوشل والبعر ، فتظفها وتهيئها ، وتحمل الى سوق النزل ، بعد عدد من الايام بقل أو أكثر تبعا لما تطيقه قواها ، رطلا أو رطلين من الخيوط الناعمة اللينة اللون .

على أن المشهد الشجع المنعش انما كان مشهد المعامل . ان هذه المعامل كانت منذ زمن غير بعيد تعمل فى تناقل . من ذا الذى لا يتذكر ؟ تشهد على ذلك تلك الاسعار التى كانت فيها عيني تقف فى سوق الغزل مع كثيرات غيرها ، وهى تنتظر فى ملل ، عسى أن تجد زبونا يشتري منها غزلها . ولكن ما أن أخذت صفارات الانذار تولول ، حتى ألقت بالمعامل حصى مسغورة . فما من حى ، وما من مكان ، بل ما من ضاحية الا واهتزت بنشاط الحائكين ، فحيثما تذهب يستقبلك اصطفاق أمشاط ، أو اصطخاب مكاكيلو . الانوال تلتهم الغزل وتسال هل من مزيد ، فلا شيء يشبع جوعها الشديد المجنون الى هذا العلف الوافر : الصوف .

ان المدينة القديمة التى كانت مدينة أصحاب حرف ، تضحى الآن بفقوها العتيق وتستحيل الى ما يشبه مدينة صناعية . ومنذ انطلق هذا اللهب ، عدل الحائكون من تلقاء أنفسهم عن تصفهم القديم ، فهم الآن ينتزعون من أيدي البائعات أى صوف مهما يكن شأنه ..

وتكاثرت المناسج والمعامل تكاثرا مبالغتا ، بينما كانت تسافر الى فرنسا بغير توقف سجاجيد وأغطية .

كان الألمان يأخذون في نهاية الامر جميع هذه الانسجة ، يشترونها بالوزن ولا يعينهم النوع . وزوى بعضهم أن كل قطعة من هذه القطع كانت متى وصلت اليهم تمزق وتسحق وتحول الى مادة خام .

لا يزال الجيش اللجب المتحرك من الجياح يزدهج في الشوارع والأزقة بغير انقطاع . وكأنه يشق الأرض ويخرج من أعماق مجهولة . غمار من الناس مخجل ، يتفلى في الهواء الطلق ، عارضا أعضائه المنهوكة ، وقروح القائحة ، وأعينه المحقنة بالترخوما . ان رمادا باردا قد نثر على هذه المخلوقات التي لا هوية لها . وهم يتسكعون قليلا هنا ، وقليلًا هناك ، ولكنهم لا يمضون قط الى أمكنة بعيدة . وليس يحفل بعضهم ببعض ، فهم لا يجتمعون ، الا اذا وزع طعام أو وزعت فروع ، فأنهم يشكلون عندئذ حلقة ما تنفك تضخم . حتى اذا طردهم أحد في مثل هذه اللحظة تفرقوا طائعين .

وساء الجو بعد بضعة أيام ، فاذا السماء تتبدل تبدا كاملا على حين فجأة فتصبح قاتمة ثقيلة ، وتتعمد فيها سحب كثيفة ، ثم تنشق السحب عن أمطار غزيرة ، تهطل على الأرض حائقة ، وتظل الأمطار تنهمر كأنها تتدفق . وعادت كآبة المياه المضطربة تخدر المدينة . ظل المسئولون يضربون في الأرض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذي يبلهم . أنهم يسرون وقد ماتت منهم الاحداق ، وراحوا يمدون أيديهم بحركة غريزية . أنهم يتبعون من بين المطر المتساقط كامدين مبعثرين ، ثم ما يلبثون أن يعودوا اليه . لكن العدم الرطب كان يتقيؤهم .

ألف السكان منظر هذه الاطياف الآن . اذا لم تجئنا الأمطار في هذا العام بأي خير من خيراتها المعتادة كما يجب ان تتوقع ذلك ، فاتها على الأقل ستدفع الى شوارعنا هذه الأنواع من البشر ، الخلقة البالية ، الدكناء كاتها وحوش القاب . بهذا الكلام كان يتندر بعض المازحين .

وكان هؤلاء أنفسهم يقولون بصدد هذه المخلوقات البائسة :
— ليس في الأمر خطورة .. ما هؤلاء إلا منا .. انظروا اليهم ،
أنهم مرآة تنعكس فيها صورتنا نحن ، أنهم اصدق صورة لما نحن عليه . انظروا اليهم تروا هذه الصورة .
وظل الجو السيئ مقيما في المدينة لا يبارحها . ان من الصعب على

المرء ان يقبر عما يترك هذا الجو السيء في النفس من أثر . لقد أصبحت أيام الصحو الأخيرة ذكرى دارسة . وكان الناس حين يرون أعاصير الماء تهدد بابتلاع الكون يدمدمون قائلين : « حمانا الله من الكارثة » . لقد انفتحت أفنية السماء . ان الفيضانات تذهب بعدد من الضحايا في كل عام تقريبا . وبعض المساكن ينهار أحيانا . والناس يضيفون الى ذلك قولهم : « سبحانه اسمه » .

ان أبخرة كثيفة توشى المدينة في بعض الساعات من بعد الظهر . وتبلغ من كثافتها ان المدينة تقيب فيها ، فما يستطيع أحد ان يميز شيئا . ومع ذلك كان الأعصار يزول في بعض اللحظات ، وكان الهواء يسكن شيئا بعد شيء ، ويظل المطر يهطل ، لكنه يهمل عندئذ رذاذا دقيقا ، بقشة خفيفة تشبه أن تكون دخانا .

وتعود المباني الى الظهور ، مبتلة حتى الحجارة . وتسفر الأشجار عن قاماتها السوداء الشعشاء في جو مكبرت بارد الأشعة أدهمها . وتمزق سحب رطبة على رعوس الماذن ، وتشرج في أشجابه الدلب القديمة ، ثم تتبعثر اربا كبيرة ترقى الى السماء ، فتشدها هنالك رياح تهب على حين فجأة . وولى الصحو بعد ذلك .

في ذلك اليوم عدل عمر عن الذهاب الى سكك الحديد ينشئ حجارتها . انه يحتمى الآن ببعض الأوراق أو بعض الشرفات ، ويشب فوق برك الماء ، راكضا الى البيت ليحتجف . لقد هبط الليل . ان القلة القليلة من الناس الذين لا يزالون يصادفون في الشوارع يسرون بخطا خفيفة .

وفجأة أخذت الأمطار تدك الفضاء في عناد أقوى ، وهذه هي المدينة ، المظلمة الملتمة ، المختنقة بين جدران أسوارها ، التي تخرج أزقتها الى غير نهاية ، وتتكدس بيوتها المتشابهة متسندا بعضها على بعض ، ويشبه كل حي من أحيائها أن يكون كتلة من وحل ، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد ما يكون عداوة وتكرا . جدرانها جهمة غفلا ، شوارع وأبراجا وأسقف مغسولة .

حين أجبرت عيني ايئها على أن يخرج معها ، كانت المدينة لا تزال غارقة في حلم من ماء وضجر . وقد التقيا أثناء الطريق بمسولين ينتقلون جماعات جماعات ، ويهفرون كالاشباح في الشوارع الفارقة في البخار ، فيبدون بعيدين بعيدين ...

ولكن سرعان ما ظهرت كثلة « ميدان البليق » . هذه اكايل من سلال القصب معلقة بسقوف خصاص الخشب القابعة في وسط الميدان على صورة مربع ، حزام من قفف تختفي وراءها قفف وسحاحير خضر ودكاكين شواء ، كقلب أخضر قائم تنشق فيه حوائيت اجزارين جروحا بلون البنفسج . ان رائحة قوية من روائح الغياض تملأ الجو . والامطار منهمكة في اذابة الالوان الخضراء والشهباء من الاشجار ومناضد الجزارين والناس والمباني . والميدان والشوارع المجاورة ورشة بحركة الناس والعربات ذاهبة آتية . والجمالون المسقاب يحولون هنا وهناك في خرق رثة : والفلاحون الخشان تفوح منهم رائحة الارض وهم يسرون . وهؤلاء نسوة يمرون بالمكان متدثرات بحجب بيض . ان الضوضاء مخلوقة ، وأصوات الناس تخرج من صدورهم مبتلة ، والشحاذون ينادون نداءات مصرة بغير امل : « حسنة يا اخوان ، صدقة ، حسنة » .

ان هؤلاء الشحاذين لا شان لهم بأولئك الذين وفدوا الى المدينة في المرة الاخيرة . انهم لا يشيرون قلق احد من الناس .
- « حسنة لله ، حسنة على ارواح موتاكم ، صدقة يا اهل الخير » .

وأمام خص من خصاص الخشب تجلس فيه على عروشها قدور نجلاء ، أبطاً عمر خطاه يتمصص الروائح المبتلة التي تخرج من القدور . ولكن صوت عيني ما لبث أن استحثه من بعيد كأنه مهماز . وسارا في دروب المدينة الواطئة .

ان البيوت في هذه الاحياء القديمة لا يصطف بعضها الى جانب بعض ، بل هي تتصادم في فوضى كبيرة وسط الطريق المرصوف . وهذا جدول أسود يتلوى بين الابنية الهرمة المتأكلة . سارت عيني

وابنها أولا في شارع صغير سريع الانحدار متعرج ، أفضى بهما الى « باب زير » ، ومن هناك دخلا في شارع صغير آخر رمى بهما الى زقاق مسدود . كانت المدينة قد أقفرت مرة أخرى تحت وابل المطر . وقفت عيني أخيرا أمام بيت عتيق ، مهيب المظهر ، رغم تخربه ، ورفعت دقاقتي البروتزية ، فقرعت الباب ثلاث مرات . كان الباب المصفيح بالحديد مفتوحا ، ودوت الضربات في الفراغ . احتمت عيني مع ابنتها بالمدخل المغطى بمربعات قديمة من الخزف . ما من جواب . لا صوت الا صوت تساقط المطر على بلاط فناء البيت . قرعت عيني الباب مرة أخرى ، ونادت :
- يا أمنة .

لقد حرصت عيني على ألا يكون صوتها قويا . المطر يتساقط على بلاط الفناء في قرقرة متساوية . لكن البيت خال من السكان . قوت عيني ضرباتها وصوت ندادتها : طاق ، طاق ، طاق .
- يا أمنة .

ظهرت في هذه المرة امرأة طويلة يابسة لها رأس كراس الماعز ، فقالت لهما رأسا في ايجاز وخشونة ، دون كلمة ترحيب :
- انه هنا .

فرقت عيني تقول وقد أشرق وجهها :
- ها ...

دخلت الأم وابنها وراء المرأة ، فقادتاهما الى غرفة مظلمة كان يجلس فيها شخص متنفخ على فراش ، طاويا ساقيه . ان الغرفة الواسعة غارقة في جو من الحشايا . وفي الظل تلتصع أوان من النحاس التماغا غامضا . اخذت عيني تضرع الى الرجل وتبتهل دون مقدمات . فكان يصفي اليها من غير أن يتحرك ، ومن غير أن يطرف له جفن وكانت امرأته التي من عظام تراقبهما بعين حادة .
لم تصل عيني الى الكلام عن الفرض الذي جاءت من أجله إلا بعد ربع ساعة من الزمان ، فلما عرضت على المحسن ماحي بوعنان انها تاتمس لابنتها عملا تنهت تقول : « هذا اليتيم » ، وهي تمسك بكم عمر الذي ظل واقفا خلفها ، وفي الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمر ، وأوشكت أن تنفجر باكية . قدمدم الرجل يقول :
- أرسله الى مصنعي .

هذا هو الكلام الوحيد الذي سقط من شفتيه . فخرت عيني راكعة أمامه تشكره .

وفي هذه اللحظة انفجر في الغرفة بكاء طفل صغير . فأسرعت ربة البيت الى الركن الذي كانت تنطلق منه الصيحات . واشتبك صوت الام بصوت الرضيع . أخذت المرأة تصب على الطفل الصراخ سيلا من السب واللعن في تدفق عارم :

— يا منحوس ، يا ملعون ، حمى تأخذك .. ألا تستطيع أن تهدأ لحظة ؟ .. الله يحرمنى منك ..

وظل الطفل النزق يعول بكل ما أوتيت حنجرته من قوة ، غير مبال شتائم أمه .

كان عويله لا يزال يسمع حين خرج عمر و أمه من هذا المسكن مسرعين ، وصارا في الشارع . لقد أدركا بتلك السرعة المعهودة في الفقراء ، أن غضب هذه المرأة السليطة انما كان موجها اليهما لا الى الطفل .

قال واحد في الظل متدمرا :

- ماذا تريد ؟

فأدرك عمر من الصغير الذي صحب هذه الكلمات أن الرجل الذي نطق بها غير ذي أسنان .

هبط عمر الدرجات الأخيرة من السلم الذي وقف عليه . فصار في الكهف . أن رطوبة كروية مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه . أحس الصبي باختناق . أنه لا يرى شيئا . تحسر على الشارع : ألا أن الأمطار التي تهطل كالأنهار خير من هذا الجو الخانق . تردد . واستبدت به رغبة جامحة في صعود السلم والفرار من هذا المكان . كرر الصوت يقول :

- ما الذي جاء بك ، هه ؟ قل ..

- أجاب عمر :

- أرسلني صاحب المصنع .

وطافت في خياله صورة المرأة الطويلة ذات الرأس الذي يشبه رأس ماعز ، وصورة الشخص المنتفخ . وتخيل أمه عيني وهي تخر زاكعة أمام ذلك الرجل ، وتخيل نفسه وهو يستحثها على القيام والخروج بعثيف القول ، فتنهض ولكنها لا تستطيع الذهاب ، وتظل تردد :
- أنت المحسن إلينا ، أنت رب نعمتنا . جزاك الله عنا خيرا في الدنيا والآخرة ...

ولما ألقت عينا عمر هذا النور الخافت الذي يضيء الكهف ، رأى الحائكين الذين كانوا ينظرون إليه نظرة عداوة . أن قسما وجوههم جميعا زاوية شاحبة .

لم يعرف ماذا يفعل .

- صاحب المصنع هو الذي أرسلني لأعمل مكبها .

فنظر إليه الشخص الذي كلمه في أول الأمر نظرة قاحصة ، وقد ظهرت على وجهه أمارات التقزز :

- ما عمرك ؟

- خمس عشرة سنة .

زاد عمر عمره سنة من قبل الحيلة .
- طيب ... تستطيع أن تبقى . واليك الشروط : في آخر
الاسبوع تتقاضى من كل حائك ما يقدر أنك تستحق أن تتقاضاه .
قال الرجل ذلك بلهجة متعبة غير مفريفة . فخفض الفتى رأسه .
قال الرجل :
- موافق ؟

ثم طاف ببصره على المصنع باحثا ، وقال :
- يا زبيش ، انه يستطيع أن يبدأ .
فخرج من الظلام وراء عمر عفرت صغير مشوه ، له شعر كأنه
الوبر أشعث ، فشد عمر من كتفه قائلا :
- تعال .

فتبعه عمر ، وابتعد الاثنان الى القاع الرطب اللثق من الكهف .
- ما اسمك ؟
كانا قد وصلا الى كومة ضخمة من الاكياس والعجلات وقطع
الانوال والخیوط والعدد والاشياء الأخرى التي يصعب على المرء أن
يعرف أوجه استعمالها .

- عمر ، وأنت ؟
- أنا الذي أسألك ، وليس لك أن تلقى أسئلة . اسئلي حامى أما
زبيش فهو اللقب الذى القى به . وأعلم اننى هنا رئيس الصبية
فعليك أن تفعل كل ما أمرك به ..
فتنظر اليه عمر يلاحظه متحيرا ، وأضاف زبيش يقول وهو يتنهز
على ساقيه العوجاوين .

- هل فهمت يا مفضل ؟
وكان الحائكون يتابعون كلام الصبيين دون أن ينقطعوا عن العمل .
فقبض عمر كفه ، ودمدم يقول متوقعا بصوت خافت :
- أياك .. حذار ..

فتنظر اليه زبيش يتفرس فيه دهشا ، وتتمم يقول :
- أنت من أهل المشاكل ؟

ثم لم يلبث أن صاح يقول بلهجة المجاملة :
- اسمع يا عصا .. هلم نتصالح ، هل تريد ؟ أنت تروحت لأننى
رميتك بسهامى ، فأعلم أن الأمور ستظل تجري على هذا المنوال
ما بقيت هنا .. أنك لم تر شيئا بعد . انتظر قليلا ، وليسلخن جلدك
سلخا .. موافق ؟

ومد يده الى عمر ، فتناولها هذا ، وتابع الصبي يقول :

- ليس يجديك انك كبير . لسوف ترى هذا بأم عينك . أنت جديده ، وعلى الجديد أن يطيع القدامى . عليك أن تطيع ، هذه نصيحتي اليك . . الطاعة خير لك .

دمدم عمر يقول من بين أسنانه انه موافق ، فدهش زبيش من هذا الأذعان الذي لم يتوقعه .

- حسن . . . أنت فتى طيب . . . هيا كبب شلل الغزل التي تراها هناك .

قال زبيش ذلك وهو يشير بيده الى شلل من الصوف المفزول تضدت تحت درج . كان عمر يعرف ما هو العمل في مصنع نسيج . فغرز مكبا على مداره الحديدى ، ووضع عليه شلة من صوف ثخين مبروم برما متفالوتا ، وأخذ يعمل شادا رأس الحيط .

انه يعمل منذ برهة ، تحقيق به جلبة مفزل . واصطفاق الأمشاط يوشق بعضه فى بعض بين فرقعات المكاكيك . ان عمر يصغى الى هذه الضوضاء . . . ويصغى الى الضجة الناعمة المخشخشة التي يحدثها مكبه . أمس كان حرا . أمس كان يجرى فى الشوارع طليقا بغير لجام . وهذه حياته الآن تقطع قطعاً بما يشبه السانطور . شهر عمر بحزن مفاجئ يأخذ بمجامع نفسه .



الظهر . لم يمض احد . وعمر لا يجرؤ أن يمضى ايضاً . فعل ما فعله غيره . لم يترك الكهف . صبر . وأهم يخرجون طعاما . ومر قربه رجل عملاق تزين وجهه لحية كالفحم سوادا ، فسأله بصوت عريض :

- ألم تجيء بطعام ؟

فلما أجابه الصبي بحركة من رأسه انه لم يجيء بطعام ، قطب الحائك حاجبيه ، ومضى الى نوله ثم عاد يحمل قطعة من خبز الشعير وقليلاً من الزيتون الجاف وضعهما بين يديه .

شخص عمر اليه بعينين دهشتين . فتأمله الرجل العملاق صامتا انه ليس ممن يكثرون الكلام . ومضى يلحق بجماعة العمال الذين كانوا يتناولون طعامهم عند قاعدة الدرج ، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة .

وبينما كان عمر يمضغ خبزه ، وصل زبيش ، وعاد يصدر أوامره :

— حاول ألا تنسى في المساء ، قبل اغلاق الدكان ، ان عليك أن
ترقب الاشياء المبعثرة ، وان تكنس الأرض ، وان تحمل الاغطية
الى المستودع بعد ذلك .
— وأنت ؟

— أنا ؟ سأفعل مثلك يا أبه . . ولكننى هنا أقدم منك ، فعليك
أن تتبع نصائحي . ستجرى الامور على خير حال اذا أنت قررت أن
تطيعنى . .

قال زبيش ذلك ، وغمز الصبى الجديد . كان يبدو مسرورا بشيء
لم يستطع عمر أن يعرف ما هو . كانت حدقاته المحتقنتان تلتصعان
رغم الفشاوة التى تحجبهما . وظل يثرثر بصوت شرس ، ثم غنى
الحانا لا رأس لها ولا ذنب .

وفجأة أخذ يحكى قصة عن أبيه . قال ان أباه الذى مات منذ
ثلاث سنين كان حدادا . وفى ذات يوم بلل احدى بناته بزيت الكاز ،
وهى فى السنة الاولى من عمرها ، ثم أحرقها حية . كان لا يعمل ،
وكان يعود الى البيت فى كل يوم وهو فى سكر شديد . وكانت الأم
لا تدري ماذا تصنع من أجل أن تجيئهم بطعام . كانت تمضى تتسول
متلعة بحجابها . .

وما كاد الصبى يفرغ من حكاية هذه القصة حتى شرع فى حكاية
قصص أخرى . فلم يبق فى ذهن عمر من هذا السيل من الكلام
الذى سمعه الا أن هناك عصابات من اللصوص لا يستطيع أحد أن
يقبض عليهم ، حتى ولا ذلك الجيش من رجال الدرك الذى يطاردهم
. . فى اللحظة التى يظن انهم على وشك أن يقبض عليهم ، يتحدث
الناس عنهم فى الطرف الآخر من البلاد . وحين يعتقد أخيرا أن
انقبض عليهم أصبح أمرا أكيدا ، يختفون بما يشبه السحر ، فما
يعثر لهم على أثر . وخفض زبيش صوته ليقول ان الفلاحين
يساعدونهم لأن هذه العصابات من اللصوص تعاقب اغنياء المستوطنين
الفرنسيين وتفرض عليهم الاتاوات .

كان الصبى يعرف قصصا كثيرة مرعبة ، عن السحرة ، والقتلى،
والأرواح ، والفيلان . . ان اعتلال صحته ، وذبول جسمه قبل
الأوان لم يخفضا نشاطه ، بل انهما ليوقدان فى عروقه نارا .
وكان يوزيد ، وهو صبى آخر ، قد قرفص قربهما ، وأخذ يصفى
الى الحديث محملا .

وفى هذه اللحظة صاح شول يأمر :
— الى العمل يا اولاد !

ان شول هو ذلك الرجل الذي ليس له أسنان . انه بجسمه
المعروق ووجهه الأغبر وشعره القصير ، أشبه بمقشة عتيقة متفتقة .
أخذ يدنو بخطا متبخترة ، وهو يضحك ضحكة تكشف عن لثتيه
البنفسجيتين ، وعيناه جافتان جارفتان كعيني باز . . حتى اذا
أوشك ان يحاذي زبيش ، انبطح العفريت الصغير على الارض . ان
هذه الحركة تجنب الصبي لظلمات اليد العريضة الصلبة ، يد هذا
الحائك . كان شول يتصرف تصرف من هو صاحب المصنع . انراه
كان يستمد هذه السلطة من رب العمل ؟ لا شك في ان الامر كذلك ،
فقد كان العمال يخضعون لاوامره .
كرهه عمر .

ـ هيا . . بسرعة . . الى العمل !

واشتد الظلام فجأة في الكهف ، حتى لمعجز المرء ان يجد طريقه
فيه الا تلمسا . وانتشر برد قارس كالثلج . لا شك ان السماء قد
غشيتها السحب . جلس عمر امام مكبه . ونهض زبيش بسرعة منذ
تجاوزته شول ، وأخذ يصيح صيحات طويلة : « هوه ، هوه »
واشتعل المصباحان اللذان كانا معلقين في القبة يفتيهما الغبار .
نظر عمر الى مكبه وهو يدور . هؤلاء الناس ، هذا الرجل الذي
اسمه شول . . نظر عمر اليهم متفرسا . . انهم أشبه بيوم اختار
ممكنه في ظلمات هذا الكهف .

لم يأت المعلم ماحى بوعثان الا فى نحو الساعة الرابعة . هو ذا يصل الآن متلففا بقباء أحمر من وبر الجمل ، وقد انتفخ القباء بالماء وتصلب . ان كل حديث قد انقطع من قبل ان يصل الى آخر الدرج ، وتضاعف نشاط الأنوال .

قلما صار فى وسط المصنع رد عمارة البرنس بحركة من كتفه الى وراء ، وأخذ يهز جسمه ليتساقط عنه الماء . ان قطرات كثيرة تساقط على الارض فيسمع وقع تساقطها . وكانت الريح تهز زجاج النوافذ .

وتهالك المعلم بعد ذلك على كومة من الاغطية قرب كانون من فخار فيه فحم مشتعل ، ثم مال بجذعه على النار وأخذ يدق يديه صابرا . ان بقعا حمراء ترسم على قبائه . وان انعكاسات مثلها توقد نارا فى عينيه .

قال شول :

- جو لعين !

- هم ...

هكذا زفر ماحى بوعثان وهو يقوس حاجبيه ويرفع أجفاته المتورمة .

ونغمس فى الرماد الرخو ملعقة معدنية طويلة الأطراف ، فحرك بها النار ، فاذا الجمرات التى لم يكمل اشتعالها تطلق وتنفذ بشراراتها ، فيسحق منها بوعثان ما وصلت اليه يده ، ويراقب الأخرى وهى تنطفئ من تلقاء ذاتها .

انطلق شول يضحك ضحكة انتهت بفرغرة . وكانت عيناه المدورتان اللتان ليس لهما أهداب ترقبان رب العمل . قال :

- تكاد تحرق الورشة .

فلم ينظر اليه ماحى بوعثان ، ومال على الكانون بوجهه الثقيل وشاربيه الأشعثين المتدليين .

هتف حمدوش يقول ، وهو شاب أحمر الوجه :

- يا معلم ، اذا استمر هذا الجو ، فأنت الذى ستجمع الذهب ،

فما من جو يروج أعمال الخائكين كهذا الجو ..

وكان ماحي بوحنان يصفى الى هذا الكلام ، فألقى عليه العامل المتوهج الرأس نظرة شذراء .

— سيكون في وسعك أن تدفع لنا المتأخر من حسابنا بعد الآن ، أليس كذلك ؟ .. اننا ننتظر منذ أسابيع . وما هو بالمال الكثير ، ولكنك لا تفلته بسهولة ، أعترف بذلك . حذار ثم حذار ، انه خير للمرء ألا يملك ذهباً كثيراً . فكلما ازداد ما يكتزعه منه ازداد حسده الناس له .

قال حمدوش ذلك وضحك ضحكة حادة . ان هذا الفتى الجميل ، وهو أصغر العمال سناً ، يتكلم بصوت عال متقطع ، يحلق من يخاطبهم . ظل ماحي بوحنان صامئاً ، متسنداً على الأغصان بعيداً مائة فرسخ عما كان يقوله الآخر .

ورجع هذا عن رأيه فاستدرك يقول :

— أوه .. ما قلت هذا متشكياً ، فالأمور باقية على حالها ، ويبقى للمرء أن يقبلها ، خير للإنسان أن .. .

فرفع رب العمل رأسه ، وألقى عليه نظرة احتقار . وقبل أن يستطيع الشاب الأحمر أن يضيف الى ما قاله شيئاً ، كانت عينا ماحي بوحنان قد اختبأتا تحت حاجبيه الكثيفين . وظل حمدوش ساكناً .

فاذا بضحكة ساخرة تفضن خدي شول الداويتين .

— اذا حل الخير أصاب منه الجميع . وانما ينبغي للإنسان أن يؤدي عمله في أمانة .

— خاصة وأنا لن تبدل من الامر شيئاً مهما نقتتل !

بهذا أجاب حمدوش وكان التهكم يرعش صوته .

فقال شول مؤمناً على كلامه :

— ها ... نعم ... نعم ..

فاذا بالشاب يصرخ ملء حلقه :

— لا ..

ففرح عمر حين سمع هذا الجواب . ان شول لا يخيف اذن جميع العمال . وحملق شول .

وأردف حمدوش يقول بصوت بارز النبرة :

— لقد نشأت وترعرعت في حرفة النسيج هذه . بدأت العمل فيها ولم أجتاوز الخامسة من عمري . كان أبى هو صاحب المصنع .

فلما بلغت الخامسة عشرة أخذت مكاني الى جانبه على النول الذي كان يحتله من مصنعه . غير أنه كان قد أكل كثيرا من تراب الصوف ، فما لبث أن مات .

ومنذ أن قضى ولم يعد موجودا ليفنى نفسه في عمله ، مات مصنعا بأنواله الثلاثة ، وانتهى الأمر ..

كانت عيناه اللتان تشبهان عيني قط قد ثبتتا على شول وهما تقدحان شررا . وأضاف يقول :

— فماذا افادنا أننا ادينا عملنا في أمانة ؟ بماذا عاد علينا ذلك ؟ بقبض الريح ! واضطرت في آخر الأمر أن أصبح عاملا في مصنع غرباء .

خيم الصمت مرة أخرى في ارتباك . أخذ ماحي بوعنان ينظر الى خيوط الصوف وهي تشابك وتحل على نول عكاشة الذي كان يعمل قبالة . وحرك يده بإشارة تدمر .

قال الغم صقالى مددما :

— الشقاء كثير في هذا العالم ..

فأضاف حمدوش :

— كثير جدا ، وإن المرء ليخطر بباله ما لا أدري ..

فهز شول رأسه وهو يعض شفتيه .

— لست في الطريق القويم يا صاحبي ، لست في الطريق القويم

التي وضعك الله فيها .

فانتصب حمدوش وقد لاح في وجهه غضب متوحش . ان ذؤابته

الحمرء تلتمع في عتمة الكهف . قال :

— هذا ما يقال دائما للذين يجرءون أن يشتكوا ..

فما كان من قوطى الأمين ، وهو حائك عجوز ، الا ان قال وقد

نفد صبره :

— هوه ... الا انك لا تتورع ولا تتحرج . اياك أن تضيف الى

ما قلت كلمة واحدة ، والا لن تعرف ما يمكن أن يقع ..

فأجاب حمدوش يقول :

— ماذا اذن ؟ ان الله نفسه تخلق عنا .

قال حمدوش ذلك ، وبصق بين قدميه على بساط للفضلات ،

مترقبا ان يكذبه احد .

ولكن لم يفه احد في المصنع بكلمة .

فقال في ألم :

— على كل حال ..

نظر ماحي بوعثمان الى عماله ثم أغمض عينيه كأنما هو يريد أن يحذف العالم حوله . وظل على هذه الحال مدة من الوقت . كان عمر الذي يعمل على مسافة بضعة خطوات يتأمل رأسه الضخم مبهوتا . وعاد اليه انزعاجه الشديد الذي شعر به في ذلك الصباح أمام هذا الرجل . ان المعلم يعضص شاربيه ، فيصدر من ذلك صوت ضعيف . ليس هو الآن الا كتلة من عدم الاكتراث . ثم تقبض وجهه وبدا عليه أنه يستيقظ . طاف ببصره على الأنوال متحاشيا أن ينظر الى العمال ، ثم نهض ليضي .

ما ان خرج ماحي بوعثمان حتى تقلصت قسومات العمال غما وحزنا . ان النهار يوشك أن ينتهي . أرخى كل منهم العنان لحنقه ، وقام بينهم وبين الأنوال صراع رهيب . الأنوال الواطئة المرصوص بعضها الى جانب بعض تحت السقف المقيب ، تن ولأ من يرحمها بين الرجال العشرة . ان بعضهم يتخالس النظر . وهذا بعض آخر يعتصم بصمت يفيض حقا . وما ينفك صراخهم في طلب المزيد من الصوف المكب يطيش الباب الصبية . يئس عمر من امدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من هذا الصوف . كان يعمل مسرعا ، ثم يزيد سرعته وهو يحس ان قلبه يوشك أن ينفجر .

انقضى آخر النهار دون أن يتبدل شيء . هبط الليل وما زال العمال يعملون ..

وحانت ساعة الانصراف ، لم يخطر ببال أحد أمر ترتيب الكهف وكنته . أدرك عمر أنه ليس عليه أن يهتم كثيرا بهذا الأمر .

خرج عمر من الكهف . لا هو ولا الصبيان الآخرون حملوا القطع المنتهية لتسليمها ، وذلك بسبب المطر . جعل عمر يركض ركضا شديدا حتى لتكاد ساقاه تلامسان عنقه . كانت سيول بيضاء تتلاحق سريعة في أعلى السماء ، وتجري في الشوارع ، وتتكسر على الأرض . ان قطرات المطر تخز وجهه وخزا . وهذه أنوار البيوت الأوروبية اثناء الليل توقظ في الخيال صور حياة هادئة سعيدة . كان عمر يركض طائش اللب أعمى البصر . ان الأمطار والرياح التي ينشقها ملء رئتيه تثير في صدره سعالا ممزقا .. ومع ذلك كان يتجمع في قلبه شعور دافئ بالرضا والارتياح ، شعور لا عهد له بمثله من قبل .

في ساعة متأخرة من الليل ذهب هو وأمه الى مركز تموين الفحم ، فوجدوا جمهورا من الناس قد اصطف بعضهم وراء بعض ينتظرون . لقد وصلوا متأخرين ، فان الليل قد جاوز نصفه . احتلا مكانا بين المنتظرين على طول العنابر التي توزع الفحم على السكان الاصليين ، واخذوا ينتظران . كانت عيني قد ألقت على حايكها منشقة تتقى بها شدة البرد ، كما أن عمر قد وضع على رأسه كيسا من الاكياس يعتمر به على طريقة الشيبالين في المواني . ان عمر قد أخذ يشعر باحساس لم يستطع كيف يعلله ، ولا عرف الى أي سبب يرجعه : لكان قنديلا يضيئه في داخل ، ويوقد في نفسه شعلة هادئة قوية . وظل الناس ينتظرون وينتظرون ، فالامطار الفزيرة تلهبهم بسيطاتها في غير انقطاع ، والليل يبدو لهم أنه لن ينتهي ، والسماء تنشر قلوغا متموجة من المياه ما تنفك تهوى في غياهب الظلام . وفي أثناء ذلك تسلسل الى الفضاء شعاع نحيل من ضياء تخير قبل ان يظهر ، ولاح أن الامطار ستهدأ .

كانت قد انقضت ساعات حين بدأ توزيع مؤونة الفحم : خمسة كيلوات لكل فرد من أفراد الأسرة ، بالسعر المحدد . وأخذ الصبح الشاحب يتمطى . حتى اذا وافت الساعة الحادية عشرة جاء دور الأم وابنها في تسلم المؤونة من الفحم . فحمل عمر الكيس الممتلىء نصفه على كتفيه وأصرع يعود الى البيت . لقد تنفس الصعداء وسرى عنه . ترك أمه بعيدة وراءه . فما ان وصلت هذه بعد قليل حتى مدت يداها الى الكيس الممتلئ حواشيه ، الذي ورثته عن الجددة ماما ، ورقدت عليه .

ونامت مستندة بظهرها الى الجدار ، وقد التف مندبها على رأسها ، وقبع فوقه كالمنشفة التي يلف بها الرأس عند الخروج من الحمام . ان فكها هابطان ، وقد انمطت شفتاها بوزا ضخما . أدرك عمر أن دفئا منعشا قد اجتاح أخيرا جسم أمه الذي صقع من شدة البرد .

وهبت ريح ، فتطايرت الستارة الثخينة المسدلة على الباب ، ولطخ المطر العتبة ، وغارت عاصفة أقسى من العواصف التي سبقتها ، فلمح عمر الفسق الذي يلفح وجهه بأنفاسه الباردة . ان هذه الغرفة الطويلة ذات البلاط المربع الاحمر ، والجدران المطلية بلوكس أخضر ، وما فيها من جلود الخراف الهزيلة ، والأسماك البالية ، والخزائن المصنوعة من خشب الواح السحاحير ، هذه الغرفة تبدو له الآن مهجورة لا يسكنها أحد .

راح عمر يتأمل هذه الأشياء وقد جلس على البساط أمام الباب . ان صمتها الأخرس يدهشه . وثقلت نظراته عليها ، ولكن كل شيء منها ظل محتفظا بوجهه المألوف . استمر عمر في أحلامه . لا صوت الا صوت تساقط المطر يعكر هذا الصمت .

وأخرجه من تأملاته تنفس أمه السريع . نظر اليه متفرسا : انها عجوز . شعر بالم يحز في قلبه . انه لم يتسائل قبل الآن ما عسى أن يكون عمرها . وها هو ذا يجري حسابا سريعا من أجل أن يقدر لها سنا . قال لنفسه : « أربعون سنة .. بل انها لم تبلغ حتى الأربعين » . انها لا تزال كما كانت ، لا تزال على حالها ، غير أن هناك الآن هذه اللحظة من الغفو ، وذلك النهار الماطر ، وهذا المساء الكاليج . ظل ينظر اليها صامتا . وكان الأفكار التي دارت في ذهن الفتى قد لامست أمه ، فاذا عيني تتحرك في رفق ، ثم ما تلبث أن تعود الى سباتها العميق .

لقد سبق أن قالت لا لا في ذات يوم : « المرأة الوحيدة يدب اليها الهرم قبل غيرها » . ما اصدق ذلك القول ! ان عيني يمكن أن تكون بنت لا لا سنا ، ومع ذلك فلو رآها في هذه اللحظة راء لحلف أنها هي الأكبر سنا . ان كل زفرة من زفرائها تنفخ خديها واحدة بعد أخرى ، ثم تخرج من بين شفثيها في شخير . وفجأة نشقت نشقة عميقة ، وأخذت تنفّس من فمها الفاجر .

كان عمر يحس أن هوة تقوم بينه وبين هذه المرأة التي شوه وجهها النوم . انه مشدوه أمام هذه المرأة الضعيفة المهجورة ، حتى لكأنه غريب عنها . أى شبه بين أمه وبين هذه العجوز التي ترفد هنا ؟ ترى ايكون لها هذا الوجه نفسه حين يوافيها أجلها على حين بفتة ؟ وهاجمت رأس الفتى أسئلة أخرى أيضا . ما عساه يصنع حين يراها تلفظ أنفاسها الاخيرة ؟ أترأه يموت قبلها ؟ أم أنها هي التي ستموت قبله ؟

وحدث نفسه بقوله : « أفضل أن أموت من أجل أن تعيش أُمى »
 ان بقعا كبيرة من رطوبة تدب في السقف وعلى الجدران ، فتلتهم
 طلاء الكلس . والعتمة ترشح من خلال الحواجز وتتجمع في الغرفة .
 النهار في خارج الغرفة لا يزال أشهب .
 سكان دار سيطار قد قبع كل منهم في ركنه . فناء البيت خال .
 ولا صوت يخرج من المطبخ الكبير المشترك .



ما كان لعيني أن تدهش أكثر مما دهشت لو شدها زند قوى
 فانتزعها من البله الذي كانت فيه . انها منذ لحظة تصارع اشباحا ،
 وتتمتم بأصوات هاذية لا معنى لها . ان هذه الظلمة التي تحاصر
 الغرفة وتدور في الزوايا وما تنفك تكثف تشوشها أشد التشويش .
 فلما رأت في المكان الذي يجلس فيه عمر كتلة غامضة لا يكاد يكون
 لها شكل ، قالت لنفسها ، وقد قوى صوتها :

— هذا كابوس حقا ! اظن أنني غفوت . ما هذا الاختناق ؟ يا روح
 أجدادي ! هل جثمت السماء على الأرض ؟
 وسألت الفتى تقول :

— ألم تجيء أختاك بعد ؟
 كان في سؤالها قلق . قال عمر لنفسه : « انهما لم تجيئا بعد .
 لسبب بسيط هو ان مصنع السجاد لا يطلق سراحهما الا في الساعة
 السادسة من المساء » .

— لماذا لا تذهب للقائهما يا بنى ؟
 — الا تعلمين انهما لا تخرجان من المصنع الا في الساعة السادسة ؟
 متجيثان .

— أنت هنا في مأمن ، وليس على المرء ان يزج نفسه من أجل
 غيره .

وأضافت تقلد صوت ابنها :

— متجيثان ..
 وبضقت على الأرض احتقارا :
 — تفو ...

نظر الصبي من خلال شق الباب الى السماء المنخفضة التي تتخللها
 التماعات مزرقة . ان رؤيتها أصبحت متعذرة منذ الآن ، هذه
 السماء .

وصاحت عيني تقول في الظلام :

— يا محمد في البيت ، والعمة فاطمة في السوق : هذا ما يجب أن يقال عنك .

— لن يأكلهما أحد .. الا تنوين أن توقدى لنا بعض النار ؟
— كان ينبغي أن تكون الآن منهنكما في العمل لا قابعا في البيت ،
لولا أن قلبك ميت ..

خير له ألا يرد عليها بكلمة .. انها تعتقد أن الكوارث تتراكم
فوق رأسها الى غير نهاية . أليس خيرا من هذا أن تدفئ
الفرقة قليلا ؟ ما أشد تقديرها في استعمال هذا الفحم الذي يوزعه
التموين ! انها تظن باشعال القليل من النار حتى في أيام البرد
القارس ! انها بعد أن تهيب الطعام تبلل الموقد حفاظا على الجمر .
— لست تصلح لشيء ..

قال يدافع عن نفسه وقد نفذ صبره :
— هبني حاولت أن أخرج ، فهل ترين كيف أكون في الشارع ؟
بأية ملابس ؟
لقد تبللت ثيابه في الليلة الباردة ، وليس له ثياب غيرها .
قالت :

— ليس يهلك أنت الا أن تأكل وأن تنام .
ثم رددت بصوت كانه صوت من يتكلم في منامه :
— وجدت الفندق والمطعم ، فتمتع .. وسوف نسأل عنك ذات
يوم ، فاذا أنت قد اختفيت . ستطير عاجلا أو آجلا كما طار
الآخرون .

« الآخرون ؟ من هم هؤلاء الآخرون ؟ » كذلك تسأل الصبي
مروعا ، وأصفي الى أمه بعد ذلك دون أن يظرف له جفن .

كان يعرف ما يظرف على مزاجها بين الفينة والفينة من قلب
مخيف . هذا بعينه ما يحدث في كل مرة . منذ ثلاثة أيام قالت له ،
ناسية أنها هي التي قادته الى ماحي بوعنان : « لو بقيت في المدرسة
لامكن أن تحصل في المستقبل على عمل في مكتب .. ولو كناسا .
أما الآن فما عسى أن تصبح ؟ حائكا ؟ لسوف تعمل في النهار والليل
دون أن تجني كسرة الخبز . هل تسمع ؟ لن تجني كسرة الخبز » .
استولى خدر الليل على الدار الواسعة . والأمطار التي ضاعفت
حماستها أثناء ذلك لا تزال تفضي الى الفناء والى الاروقة بهذيانها
المحموم الذي لا ينقطع .

أضافت عيني تقول بعد أن ظلت صامتا خلال لحظة من الوقت :

— . . ذلك أنك تظن نفسك رجلاً .

وعادت تنهته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة .

لقد استبد بها الغضب . ثم قالت تلومه : لعلك تحسب أن ليس
في قلبي الكفاية من الجروح .

إن صغير الريح وقرقرة المطر ، اللذين يختلطان بصيحات عيني ،
قد أيقظتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل إلى وصفه .

كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر . .

قالت مدممة :

— على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد الغار ، واكلنا كما تأكل
الحشرات ، وتركنا كما يترك المنبوذون . حتى خبزنا أسود ، كسواد
هذا الليل الذي يلغنا بظلامه .

عمر ينظر الى فرجة الباب الشاحية ، وينظر الى الليل المخيم وراءها ، وعيني راقدة تحلم . ان الصبي يستعرض اعماله ويحس أنه مذنب رغم أنفه . لقد أثرت في نفسه شكايات أمه .

انقضت بضعة دقائق ، ثم قالت عيني تسأل ابنتها :

- هل رأيت اعلان البلدية ؟ هل اعلن عن توزيع الدقيق ؟

- لا ، لم يعلن الا عن الزيت والصابون ، وقد أخذناهما . فإذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية ، كان توزيع الدقيق لا يجيء اوانه الا بعد ثمانية أيام أو تسعة .

- ليتهم يستعجلون !

قالت ذلك مدممة ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم أضافت بلهجة ذاهلة :

- الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الايام .

- لا غرابة في هذا والجو على ما ترين .

كان عمر متربعا على البساط ، يمسك بيديه قدميه العازيتين ويصفى الى ضجة الأمطار ويحدق الى الظلام . ان حواسه كلها متجهة الى الليل الذي تجتاحه الزوابع . الريح تهب عاتية ، من الشمال تارة ومن الغرب تارة ، تحاول ان تهشم المدينة ، ولكنها تصطدم بجميع المنافذ عمياء مجنونة ، فتجدها موصدة مسدودة . « يجب ان أكافح جميع الصعوبات ، مهما يكلف الأمر ، ولو أرققت في سبيل ذلك دمي » .

قال عمر ذلك لنفسه ، فالتقى هذا الوضوح على أفكاره ضياء ساطعا .

وسمع وقع خطوات عجلي بعد ضجة أحدثها دفع باب الدار دفعا قويا ، فاهتز من ذلك ما كان يرين على دار سبيطار من ركود ثقيل . وتبعث ذلك بليلة وشبت آهات وصيحات .

قال عمر وهو ينتفض :
- جاءتا .

- أخرس .. أنظن ان ليس لى أذنان اسمع بهما ؟

ان خطوات نشيطة تفرقع في فناء البيت تحت . لقد عادت عيوشة ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات . انهن يشتمن تجمهم السماء بالامطار ، غير ان اصواتهن المفردة تفيض بالضحكات .

قالت عيني لابنها امرأة :

— أشعل النور ، فقد خفقنا هذا الظلام .

وما هي الا لحظة حتى ظهرت البنتان وقد حسرتا عن الوجه الحجاب . ان المطر الذي رشح الى الرأس من خلال الحائك قد الصق بالحدود خلا من الشعر . وتغير كل شيء في الغرفة حين وصولهما .

فما كادتا تدخلان الغرفة حتى انفجرتا في ثرثرة لا أول لها ولا آخر ، ولا تقطعها الا صرخات صغيرة . ان كلا منهما تريد أن تسبق الأخرى في الكلام ، حتى اذا استطاعت احدهما ذلك ، لم تلبث الثانية أن تصبح ثائرة :

— صوتك مسموع في أقصى المدينة . اسكتي .. اف ..

فتجيب الأولى ، أو تجيب الثانية :

— أتريدين أن تكلمي قلمي ؟ يا نور عيني !

فلما تدمرت الأم ، طفقت البنتان ترتبان الحجرة قليلا على مهل ، غير أن مريم ما تلبث أن تنصب ، فتستلقي على البساط . على أنهما لم تكفا عن الثرثرة أثناء طواف عيوشة في الغرفة ذهابا وإيابا . حتى اذا غابت عيوشة ، في لحظة من اللحظات ، خلصة ، لتنزل الى زهور في الطابق الأرضي ، لم يخف ذلك على عمر . لقد تركت زهور زوجها منذ عدة أيام ، والناس في دار سبيطار يحيطونها بعناية شديدة . والفتيات في ظمأ الى معرفة ما قد كان الزواج بالنسبة اليها ، أكثر من غيرهن . فكان حشدهن المهذار يجتمع في غرفة إحدى الجارات تحت ، لأن أم زهور ما كان لها أن تحتل انعقاد هذه الاجتماعات عندها ، فقد كانت تنفجر باكية متى لمس أحد أنفها ، على حد التعبير الشائع . انها منذ المشاجرة الأولى التي وقعت بين زهور وبين زوجها لم تشأ أن تتدخل في الأمر ، حتى لقد توجهت لابنتها النائحة ، خشية أن تعود اليها مطرودة الى أمد طويل ، أو ربما مطلقة .. كانت اذا تصورت هذا الاحتمال يفزوها رعب شديد . وما هي ذى زهور قد رجعت الى دار سبيطار .. مسكينة أمها ..

حين قصت زهور على أمها كل ما قاسته تفصيلا ، لم تزد المراء
من جوار على أن قالت :

حين تضرب احدانا في ركن ، تلجأ الى ركن آخر .

لم علم عمر بهذه التفاصيل من أحاديث حبيبة أمها زهور فكان
من بعيد ، لحظات قصار ، وقد ارتد بها المصنوع من
حرير بلون الورد ، وعلقت بأذنيها قرطين من ذهب . لشد ما تغيرت !

كان في يده خبز وسردينة من الليلة البارحة . الصباح يصبح الجو بالبياض ومع ذلك يحاول ضوء النهار عينا أن يتملص من الأفق الذي يفتح السماء . وفي بعيد دوى صغير صفارة انداد منذ لحظة ، كأنه صراخ انسان يسليخ جلده .

كان عمر قد بدأ يعرض الخبز والسردينة في الهواء البارد ، وكان هذا الهواء يلهب شهوته الى الطعام .

الشوارع تبلغ من ازدحامها بالشحاذين ان الصبي اضطر في غير موضع أن يخطو فوق أجسام من أجل أن يمضي في سبيله . يشبه هذا ما كان يقع في الماضي حين كان المعازون يجتازون المدينة في مطلع الصباح . فتتجول قطعانهم في الشوارع والازقة . كان المعازون في ذلك الوقت يحلبون صرور الماعز فيملأون بلبنتها الآتية التي يحض بها اليهم سكان المدينة الناعسون . ولكن الناس يخطون الآن فوق بشر لا فوق ماعز .

أن هؤلاء المتشردين وجوهها مصوحة يابسة : نساء ذهبت أثوابهن يجلسن على الأرصفة أو على درجات المخازن ، ورجال بعضهم واقف وبعضهم قد انثنى نصفين يخبىء يديه تحت أسماله الرثة .

كان عمر يلاحظهم أثناء مروره ويأكل . أن الضوء الضعيف يكشف عن عدد كبير من هؤلاء المتشردين ، فكأما سار الفتى التقى منهم بجديد . أن عددهم أكبر كثيرا مما تخيل الناس في أى يوم من الأيام . تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين ، وهو رجل قصير مدبوغ الوجه ، فتردد عنده قليلا ، ثم مد اليه الخبز والسمك ، وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما .

.. هات .

— هل أنت شحاذ !

واقترب بعضهم ، ونظر اليه آخرون من بعد دون أن يتحركوا .

— هل أنا شحاذ ؟ أوه ...

المستطلعون الذين تجمعوا حول عمر يمدون اليه أعناقهم . والنساء الجالسات على الأكياس التفتن ينظرن اليه بمزيد من التفرس . مامن

أخذ فتح فاه . وما من أحد تحرك .

لا شك أنهم كانوا سيفلون يرمقون عمر بهذه النظرة مدة طويلة لولا أن الرجل قد ترك عمر فجأة وأخذ يشغل نفسه بأن مال على بنت صغيرة مستندة بظهرها الى الجدار ، ففتت في كفه كسرة من خبز في رفق ، ثم دس الخبز تحت منديلها ، ووضعها في فمها . ليست الفتاة كبيرة ، ولا هي رائعة الجمال ، وأخذ المتجمهرون من الرجال والنساء ينظرون اليها وهي تأكل دون أن يقولوا شيئا . انها تقضم الخبز بأطراف اسنانها ، وهي تهز رأسها . أن عينيها السوداوين تحترقان محمومتين ، وتلوحان مبتسمتين تحت عمارة منديلها المعقود حول عنقها .

ونهض المسئول ، الذي لا شك أنه أبوها ، متدثرا بقطعة من قميص مشمع خيط مع مربعات من جوخ عسكري . انه يحمل الخبز والسمكة باحدى يديه ، لا يعرف ماذا يصنع بهما . وصفت الريح أنفه بالياقة السائبة من ذلك القباء القريب الذي يرتديه . وكانت السحب تجري في السماء الماطرة سريعة متلاحقة . ان البنت الصغيرة لا تريد أن تأكل أو لا تستطيع ذلك .

الأنظار كلها تتجه الآن الى الأب .

قال بلهجة شاكية :

— ما العمل ؟

فلم ينبس رجل من هؤلاء الشهود ولا لبست امرأة بكلمة واحدة . ومضى عمر راكضا ، يدخل الشارع الذي أمامه . وجرى هنالك بخطوات واسعة بين الواجحات الشهب المخضلة التي تتلاقى في هذا المكان ...

الأنوال تخبط وتترقع . وعمر منكب على عمله شارد اللب ، يشد الخيط كما تشد الأمعاء من بطن خروف مبقور . إطار القصب يدور ويسرع في دورانه ، وكتلة خفيفة تتجمع عند قدمي الصبي . ان قم الهواء الفافر قرب السقف مع قضبان من حديد ، ينشر في الكهف ضوءا شاحبا . الحائكون يتحركون ذات اليمين وذات الشمال في العتمة المتلبدة ، ووجوههم الصفراء تترجح على وتيرة واحدة لا تنفيم .

— نعم ، كانوا ينظرون الى الأمور نظرة صحيحة ، فما كانوا بالمتكبرين .

ترجمت كلمات باصقالى فى الكهف ترجعا حزينا . ان فيها حيننا قويا . ولقد قال منذ لحظة ، بتلك الشبرة نفسها : « كانوا لا يزالون يحترمون عمل البشر » .

أن الحائكين يقومون بعملهم فى حركات سريعة . وكان العامس العجوز يزود بالسداة ، فى اعمق ركن من الكهف ، مواسير القصب التى يمتلئ بها صندوق فانغر الى جانبه . أن دولابه يصير صريحا لا يتعب ، فصوته أشبه بصوت قدر كبير تغلى . لا يزال باصقالى يتكلم بعبارات موجزة تتخللها فترات طويلة من الصمت . قال صحيح أن الناس فى الماضى لم يعرفوا القطار ، ولا السيارة ، ولا غير ذلك من عجائب هذا العصر . ولكن العمل كان فى ذلك الزمان بركة من البركات . كان المرء يكسب من المال أكثر مما يستطيع انفاقه . وكان أرباب العمل اناسا كراما . . . وكان كل شيء زهيدا الشئ .

أن عمر لا ينتبه الا الى هذا الصوت المنصدع . أن أقوى اثر احس به فى اولى أيامه هنا إنما هو الاثر الذى أحدثه فى نفسه باصقالى هذا ، بوجهه المتقلس المحمر وأنفه المكسور الذى تقشره نظارتان اهليلجيتان ، وعينييه الدامعتين ، المضطربتين تحت العدستين الكثيفتين ، المبتهلتين كعيني كلب لا صاحب له . أن صوته النحيل الذى يخرج من فمه الاجوف المختفى تحت لحية بلون الفضة ، يأخذ بمجامع قلبك ، فما يتركك بعد ذلك أبدا .

لم يفهم الصبي كلمات العجوز . هل يمكن أن يكون فى مثل هذه الحاجة الشديدة الى الاحترام ؟ نظر اليه عمر ، ونظر كذلك الى الحائكين هل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا فى حاجة قوية الى الاحترام ؟

وجالت فى ذهنه فكرة غريبة . قال لنفسه : « لعلنا ندخل نحن أيضا فى «داد هؤلاء الشحاذين الذين يملأون المدينة . الا أن هيئاتهم لاقل من هيئاتنا هولا ! نحن هنا ، والناس فوق رؤوسنا تسير » .

وقطع عليه عكاشة تأملاته . قال :

— ولى ذلك الزمان وولى أهله .

قال ذلك ومسح جبينه بكم قميصه ، ثم سحب الوتد الذى يجمد اسطوانة النول ، واخذ يحاول أن يرى باصقالى .

— لقد أصبح اصحاب العمل أشد بخلًا ، وأشد قسوة بوجه خاص ، منذ صاروا يحاولون أن يجمعوا بأقصر وقت ممكن مالا ينافسون عليه

أولئك الذين لا يكسبون منه إلا قليلا .

قال ذلك وأدار أسطوانة النول دورتين . سر عمر من سماع صوته هذا الذي يخرج من صدره مليئا . ان عكاشة هو ذلك العملاق الكريم الذي نفحه بقطعة من الخبز وقليل من الزيتون في أول يوم من أيام عمله بالعمل .

أجاب الرجل العجوز :

— لقد غضب الله علينا ، فقصد كل شيء . . ازداد الفقير فقرا ، وغلا ثمن الخبز . . . هذا هو الامر . . .

أخذ أحد العمال يحرق على حين فجأة . هذه هي الطريقة التي يعبر بها حمدوش عن مرجه . وكأنه يتفرغر . عرف عمر ذلك . وكما يربت المرأة براحة يده على ظهر بهيمة طيبة ، أخذ عكاشة يضرب سمط السداة امتحانا لحسن انشدادها . وهز رأسه كأنه لا يجد ما يجيب به عن ذلك الكلام ، أو كأنه ليس هناك ما يقال في مثل هذه الحال .

قال مساعده حسين طرف مدمما :

— النهاية . . . أسأل الله أن يكتب لنا الحج الى مكة ! . . .

فتتمت عكاشة يقول في ذهول ، كرجع الصدى ، وهو يربط الخيط :

— آمين . .

استأنف الحائك الجالس الى نول واحد ، عملهما . ففي سلسلة من الحركات المحكمة ، يستقبل عكاشة المكوك الذي يقذفه اليه حسين طرف ، فيشد خيط الصوف الى وراء ، ثم يضغط بأصابع قدمه على دواسة ، ويقذف بالمكوك الى الجهة الاخرى . وبعد ذلك يخطط بالمشط خيطتين قويتين قصيرتين فتتلاصق خيوط اللحمة . ويعود زميله فيقيس من الخيط طولين .

ان عكاشة ، بما في حركاته من مرونة وقوة ، يذكرك بمسلك من المدلكن الذين يعملون في الحمامات العامة . وصدره العريض الذي يشبه قرمة من قرم الجزارين ، لا يغطيه الا قميص من قماش مخطط ، يتدلى على سرواله كأنه دراعة . ان لحيته الشعناء المفروقة تظلم من شعورك بالخشونة التي تتجلى فيه وتجعلك من أمرك في ارتباك . ان العناد الذي يظهر في عينيه ويفشيها بالضباب لا يشتمل على مرارة بل على حزن . انه لو اوضح ان قلب هذا الرجل يخنق اختناقاً .

قال مولاي بو انور مستفهما ، وهو يفرق ويلهث :

— فيم تتكلمون ؟

وتنظر فلم يظهر في وجهه المهذب ظل لفكرة .
وكان الجواب ان ارتفع صوت اشته بالصوت الذي يخرج من حرك
عود تقاب ، ارتفع هذا الصوت يقول :
- غريب .. انه لا يفهم عن أى احترام أنكلم .
أدار مولاي بو انور حديقته . انه يلهث كالمختنق . نظر الى عيون
رفاقه يبحث عن جواب .
- نعم لا افهم ...
فتدخل عكاشة يقول :
- العم باصقالى يتكلم عن الاحترام الذى كان يحمله أصحاب المصانع
للعمل الذى تقوم به .
فزال عن عينيه السوداوين العميقتين ذلك الاتقاد الخفى الذى كان
فيهما ، انهما لتكادان تبدوان الآن مرحتين .
ولم ينقطع مولاي من اللهاث ، انه يعاني من مرض الربو ، وتنفسه
يسمع من بعيد . تهدل طرفا فمه من الدهشة ، وظل على هذه
الحال مدة طويلة . قال :
- لا افهم ...
ثم عاد يعمل وهو يكبح تنفسه ، دون أن تذهب عنه دهشته .
قال باصقالى من آخر الكهف المعتم :
- غريب ..
وأطلق ضحكة ذات صغىر :
- انكم لا تزالون شبانا والحق يقال .
وضاعت هذه الكلمات في ضوضاء المصنع ، ولكنها لم تفت بعض
الأذان .
صاح أحد العمال يسأل :
- لا تزال ماذا ؟
- لا تزالون شبانا ..
- شبانا ؟
- اصغر سنا من أن تفهموا هذا الأمر .
- من أن نفهم ماذا ؟
- من أن تفهموا ما كان يشعر به أرباب العمل من احترام لعمالنا .

لا تسمع الآن الا حركة المسكاكيك تذهب وتجيء سريعة ، والا
اصطفاق أمشاط الانوال بغير انقطاع ، أو الصوت الرتيب الهادى

الذى يحدنه دوران مفزل باصقالى . الحائكون مكبون على عملهم ،
حفاة الأقدام ، وهم يرتدون قمصانا وسراويل مهترئة مبقعة . أنهم
يعملون على أنوالهم فى همة ونشاط وقد اكتست وجوههم تعبيرا
قاسيا مستغلقا .

وكان عمر غارقا فى تأملاته ، قد نسي كل ما يحيط به . نسي
الجحر المظلم العفن والعمل الذى تقوم به يداه كالتين .
وفجأة احتد دلو ، فقال معولا :

— أقهروا كما يحولكم أن تفهموا .. رتبوا الأشياء على ما يشاء
لكم هواكم .. صدعوا رؤوسكم كما تريدون .. فالامر هو هذا ،
ولن يكون غير ذلك .

قال ذلك ثم ثأثا ونطق بصيبرات مفككة ، بل ولفظ شتائم ضخمة .
وكان لابد له بعد ذلك أن يسكت ، لأن المصنع كله قد لاذ بالصمت .
وكان حمزة ، الى ذلك الحين ، يراقب هؤلاء وأولئك فى هدوء ،
فقال عندئذ .

— أنكم تتناقشون ، وتحدثون ، وتتناقضون ... فمن أجل ماذا؟
أمن أجل أن تجدوا آخر الامر أنكم متفقون ؟ أنكم إذن لتتعبون
السننكم سدى .. ماذا يجدينا أن نتساءل عن أرباب العمل فى
الزمان الماضى هل كانوا يحترمون عملنا أو لا يحترمونه ؟ اننى
ألقى عليكم هذا السؤال : ماذا ينبغي أن تعرف هذا الأمر . . اليس
أبدر بكم أن تنظروا فى أحوالكم ، اليوم ؟

وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، ويتمهل فى كلامه :

— ثقوا أنها أحوال يرثى لها !

فالتفت حمدوش نحو باصقالى بحركة قوية ، وصاح يقول له :

— هيه .. هل سمعت ؟ ما الذى ترجوه من احترامهم ؟
وتوقف الشاب الأحمر عن الكلام . أن ابتسامة حادة تشد
شفتيه . وحين قرر أن يستأنف الكلام ، زفر وقال :

— أنت عجوز !

فأجاب الصوت الجاف مرددا :

— عجوز ؟ لم يبق لى الا أن أفطس ؟

وعلى أن باصقالى احتج على هذا النحو من الاحتجاج فقد صمت

وأطرق .

— باصقالى ..

— ماذا ؟

— أنت عجوز جدا ، نعم ...

— عجوز جدا ؟

قال حمدوش مؤكدا :

— لم يبق لأجلنا الا قليل . نحن على وشك أن نشب الوثبة الكبرى .
وما الذي جئناه من هذه الحياة ؟ يمكن أن نقول : لا شيء .
وردد يقول وهو يشعر بما أثاره من اهتمام :
— لا شيء ...

ورنج رأسه يمينه ويسرة . كان يبدو عليه أنه لم ينه كلامه .
وكان باصقالي ينتبه اليه أشد الانتباه ، وكذلك كان الآخرون .
— جائز أننا عرفنا بضع لحظات من سعادة ، ولكن ما أكثر الأيام
السود الى جانب ذلك ! لقد حرمانا من كل شيء . ولم نوق أى
نوع من انواع الكروب والمصائب . قطرات من فرح ، وبحس من
مرارة ..

قال هذا الكلام وهو يبرز كل كلمة ، ويتلثث على كل مقطع .
— وفي هذا كله ليس هناك الا شيء واحد يزعجنا ، هو أن ارباب
"العمل لا يولوننا قدرا كافيا من الاحترام ! ...
أظلمت نفس عمر على حين فجأة . أن هذا الشاب الاحمر يشرف
نفسه كرها ليس له حدود . ولم ينبس الآخرون بكلمة .
قال العجوز معترضا بصوت خافت :

— نصيبنا في المثلوى الآخر .

فانطلق حمدوش يضحك ضحكا خافتا ، ويردد بصوت عال
واذعان كاذب :

— في المثلوى الأخير ..

فقال باصقالي يحتج في ضعف :

— لا خير في هذه الحياة الدنيا ، ولا ..

ولكنه ما أن بدأ عبارته حتى اختنق . اكتسى وجه العامل العجوز
صورة طفل مؤنب ، واستطال أنفه حتى سقط على فمه القائر ، ولم
يستطع أن يمسك عن ذرف الدموع .
قال قوطي الأمين مدمما بين أسنانه :
— زنادقة مبلونون ...

الامين لا يزال يحرك شفتيه مدمدا بكلمات وكلمات .
انه اطلحل اللون عريض الصلبيين ، يحمل وجهه المتأني العابس
سنيه الخمسين . ان المرء لا يمكن ان يخلط بينه وبين أى رجل
من الرجال العاملين فى هذا المصنع . عباءته المصنوعة من لباد أزرق
شاحب ، المزينة بالصفائر ، وسرواله العريضان المصنوعان من قماش
سميك أبيض ، وعنايته الشديدة بنظافة هيئته خاصة ، كل ذلك
يتعارض تعارضا قويا مع مظهر سائر العمال .
ردد الامين يقول مرات كثيرة :

- مصيركم الى جنهم ، مصيركم جميعا الى جنهم .
ولكن لم يكثر بكلامه احد . وحيد عمر هذه القسوة منه ، رغم
ان الرجل لم يكن محببا الى القلب ، ورغم ان عمر كان لا يستطيع
كثيرا خلاله القديمة البالية .

وقد ارسل عمر بعد بضع لحظات فى عمل من الاعمال ، فلما عاد
وجد الامين عند مدخل الكهف مقعيا أمام طاسة من الماء يتوضأ ،
قمضى اليه راسا ، وقال له هاهنا فى أدنيه وهو يضع يده على كتفه :
- هم يسخرون منك يا الامين ، أما انا فوالله ما فعلت ذلك قط . .
فرقع الحائك حاجبيه ، وكال الصبى بطرف عينيه . ان الريح
العاصفة التى كانت تكنس الشارع الصغير قد صبغت وجهه السمين
المتحجب بلون أزرق . وهز الامين كتفه التى وضع عليها الصبى يده .
وطرده .

- كفاك لهوا . . هيا امض الى عملك . .
فذهب عمر مجروح القلب .

ومضى الامين فى وضوئه ، وقد رد عمامته حتى صارت عند النقرة .
فظهرت جمجمته يعلوها تاج من شعر مخلوق بالموسى . غسل وجهه .
فساعديه فقدميه ، ثم مر بيديه المبلولتين على رأسه ولحيته . حتى
اذا فرغ من وضوئه عاد فنزل الى الكهف ، وارقدى ثيابه ، وعقد
الازرار حتى الذقن ، وجعل يصلى ساكنا لا يهتز ، فهو تارة قائم ،
وتارة ساجد . وظل يصلى مدة طويلة .

كان عمر يرقبه من الركن الذى هو فيه . لقد سبق ان رأى كثيرا من الناس يصلون ، ولكنه لم يرقب في حياته احدا يصلى كما يصلى قوطى الامين . ان فى وجهه بلاغة خرساء قلما يرى المرء مثنها فى وجه غيره . ان هذا الرجل القاسى يبدو بانسا كل البؤس وهو يتعبد . فلما شارب على الانتهاء من صلاته ، التفت برأسه الى يمين ثم الى شمال ، فلمح عمر ، فهز رأسه هزا خفيفا لا يدرك . كان وجهه قد اطمأن ، رغم أنه لا يزال مطبوعا بطابع الألم . وما ان جلس الى نوله حتى اشار الى عمر ان يأتى اليه ، فلما اقترب منه الصبي قال :

— اصعد الى السقيفة فائتنى بمكوك جيد . انك نشيط كقرد . . فوثب الصبي على السلم راضيا ، ولكن ما ان وصل الى آخر درجة حتى أمسك احد بساقه من تحت ، فتشبث الصبي بحافة السقيفة واخذ يصرخ قائلا انه يوشك ان يسقط على الارض . كان الشاب الاحمر يشده فى اصرار وعناد وهو يضحك .

— قل : « مياو . . انا قطبة » ، والا لم أتركك . ولكن عمر استطاع ان يتملص منه بهزة قوية ، وقال له يهدده فى غيظ :

— لألظمن بقدمى بوزك . . انه لا زال حاقدا عليه منذ مدة . انه لم يشس كيف عامل حمدوش صاحبه باصقائى .

وانصرف عنه حمدوش وأصبح لا ينتبه اليه ، والتفت الى عباس صباغ يقول له :

— انك لشر رفيق ان لم تمض فورا فتشتري بضع فطائر صغيرة طيبة ، تولمها لنا .

قذف انصبي الامين بأربعة مكاييك او خمسة ، من أجل ان يختار الحائك منها المكوك الذى يرضيه ، ثم نزل . سأل الرجل عندئذ :

— من أنت يا بنى ؟

فتحير الصبي ولم يعرف بماذا يجيب .

— . . اقصد . . من أبوك ؟

فاحمر وجه الطفل ثم لم يلبث ان استرد سمرة ، وقال متمثما :

— لقد مات أبى منذ مدة طويلة ، وليست أذكره .

لماذا هذا الاستجواب ؟ ان الامين هو اول شخص فى المصنع يعنبه ان يعرف من هو هذا الصبي .

— أنت اذن يتيم ؟ كان الله معك .
 قال له الامين ذلك وهو يمسح بيده راسه .
 — ماذا كان اسم ابيك ؟
 وانقضت برهة من الزمان قبل ان يتبها الصبي للجواب .
 ماذا كان اسمه ؟
 والتفت نظرات عمر بنظرات الحائك . قال :
 — احمد دزيرى .
 — ٢ ...

هتف العجوز بذلك ، ثم اضاف بعد لحظة قصيرة من تفكير :
 — الحاج بن على هو اذن جدك ... انا مخطيء ؟ رحمه الله انى كان
 الآن .
 وقطب حاجبيه .

— نعم كان حائكا من أمهر الحائكين ...
 وعاد الى وجهه شيء من بشاشة ، وانبسبت اساريره كأنما رغم
 ارادته . أن وجهه المحاط بشاش ناصع البياض يغطي اذنيه ، يعبر عن
 يقظة ذكريات بعيدة في خياله . قال :
 — أنت اذن ابن احمد دزيرى ؟ لقد كان أبوك رجلا شريفا ، ولكن
 كانت له أفكار ، حمانا الله ... أفكار ...
 قال ذلك ورفع ذراعيه علامة الحيرة والارتباك ، وكظم تنهدات
 همت ان تخرج من صدره على غير ارادة منه .
 — كان أبوك يقول كلاما لا يمكن أن تسمعه اذن رجل مسلم .
 كان يدعى ان جميع الناس اشباه متساوون . . فكيف يصح هذا
 الكلام ؟ انهم متساوون حقا امام بارئهم . . ولكن في الحياة . . (وهز
 راسه بحركة انكار) . . هذا مستحيل . .
 وغشى الحزن نظراته ، وعاد قاسيا صلبا كما كان .
 ثم قال بصوت واضح بعد لحظة من ضمت :
 — كان أبوك يعترض على الشريعة الحنيفة ، دون أن يعلم ذلك .
 ماذا أقول ؟ . . لقد مات .

وتابع يقول بتلك اللهجة الوقور نفسها :
 — أنا أتكلم ، وأنت في أغلب الظن لا تفهم ما أقول . ولكن هل أنا
 نفسى الا خاطيء مسكين ؟ اللهم ارحم عبادك . . لم يكن أبوك بالشخص
 الوحيد الذى يفكر هذا التفكير . أنا نفسى آخذ في التفكير أحيانا . .
 فيضل عقلى ، ولا أفهم من الأمور شيئا . يارب ، يارب ، ما هذا

الجنون الذي يستبد بعقول الناس في هذه الأيام ، فكأنهم لا يؤمنون بوجود الله .

والقى نظرا آخر بائسة على ما حوله ، ثم أمسك عن الكلام . ظل خلال مدة طويلة نهبا لاضطراب محموم ، وتجهم وجهه وبارأ فيه الهم ، فلم يستطع تحمله على الصبي مرة أخرى ، بدا عليه أنه يدهش لرؤيته . وتنهف في غناء مرات متوالية ، ثم قال للصبي يساهم .

— ماذا كنت تعمل قبل أن تأتي الى هنا ؟

— كنت أدرس الى المدرسة .

— ها . . . أنت تعرف القراءة والكتابة ؟

— نعم .

— وتعرف القراءات والكتابة بالعربية ؟

— لا .

— كيف لا ؟ تجهل أمك يا بني ؟

ونظر قوطي الأمين الى الصبي متفرسا مدهوشا ، وصمت لا شيء يمكن أن يخرج من هذه المرة عن صمته . وعاد الصبي الى عمله ، وقد أقلقته تلك الكلمات الاخيرة التي قالها له الرجل العجوز . وأمام مكتبه تذكر المدرسة والذكر دروسه فقال لنفسه : « ما كانت حاجتي الى هذا كله ؟ »

كان المطر قد غاد يقرع زجاج التوافد . الريح تدندن في الشوارع
الصغير أغنيته الرتيبة . الأقدام التي تخوض في الوحل وبرك الماء
يصل صوته الضعيف الى الكهف . والأنوال الخمسة التي يواجه
اثنان منها الثلاثة الأخرى ، تترجح تترجح دواب ثقيلة . والمكاب تدور
فيخرج من دورانها صوت أجنحة تطير : فر . فر . فر .
قال باصقالى :

— انهم اليوم لا يحترمون شيئا ولا يحترمون أحدا . .
فلم توقف كنماته أى صدى . المسدية العملاقة تمد أذرعاها الى
قبة الكهف ، قرب عمر ، كأنها تتجه بالدعاء الى شخص أو الى شيء
لا يظهر . وعدد من المكاب يتداخل في هذه الزاوية من الكهف ، متراكما
بعضه فوق بعض فوضي ، مرميا على صندوق من خشب نخر ، وعلى
هذا الصندوق نفسه ، المتقشر الدهان ، وضعت كدستان من الأغطية
وفي آخر الكهف عمدة سمكة من خشب البلوط فلا ترى في هذه
القمة الا رؤية غامضة ، فعلى العمدة تقوم السقيفة التي يقبع تحتها
باصقالى مع دواب الغزل الذى يديره . ان المرء لا يرى من هذا
العجوز الذى يعمل فى تكييف الصوف الا بياض عمامته .
قال عمر لنفسه وهو يحدق الى هذا الشبح : « حزين ومضحك .
أى احترام ينتظر من هؤلاء الناس ؟ » . وارتضى انتباهه فجأة ، وتذكر
البنت الصغيرة التى رآها فى صباح أمس ، فاضطربت نفسه مرة
أخرى ذلك الاضطراب الذى غزاه حين كان فى طريقه الى المصنع .
استمر باصقالى يتحدث عن أرباب العمل الماضين الذين كانوا
يحترمون عمالهم ، ونفى على أرباب العمل فى هذه الأيام أنهم نسوا كل
شيء . ولكن صوته لم يلبث ان انطفأ كما ينطفىء قنديل نفخت عليه .
ولم يتول أحد قطع الصمت الذى خيم على المصنع منذ تلك اللحظة
أسرع عمر فى عمله . انه يدير مكبه بمزيد من العجلة .
ثم أخذ باصقالى يرتل آيات القرآن ، فلم يلبث قوطى الأمين ان أخذ
يصاحبه فى الترتيل شيئا فشيئا . أن صوت باصقالى خشن عصبي .
أما صوت الأمين فهو سيال عميق يدرك المرء انه نال من التدريب قسطا

لم ينله الآخر ، والصورتان يشعاقدان الآن ويشساندان ، حتى لقد
صارا في آخر الأمر كصوت واحد يفرق الكهف في جو من الصلابة
والدعاء ..

فر .. فر .. أن عمر ما ينفك يشد خيط الصوف ، دون أن تحص
يداه المتورمتان الضاربتان إلى لون البنفسج (لكان المرء حين يراهما
يرى باذنجائيتين) عليمه الناعم . أن أنكارا حزينة قلقة تخب في رأسه
وأن قشعريرات تجرى في فقرات ظهره . واستنانه تصطك على أيقاع
نواج المكب وهو يدور وينخر .

اكتست وجوه جميع الحائكين هيئة الجد والشعب . والرأس الكبير
ذو اللحية ، رأس عكاشة ، يهتز وقد غشت عينييه ظلال فتوحشة
قاسية . والهمة الراحسة التي تهدد المصنع كله ، ما تنفك تتخللها
شتائم يلفظها قائلوها بصوت خافت .

غاب وعى عمر عن العمل الذي يقوم به . ظل مدة طويلة من الوقت
ساذرا لا يدري إلا الله فيما كان يفكر . حتى إذا تاب شعوره حملت
إليه أنسام الكهف رائحة نثنة قوية اشماز منها اشمئزازا شديدا .
العمال يدفعون المكاكيك ويخبطون الأمشاط وقد تجهمت وجوههم
وصمتوا لا ينسبون بكلمة . والضربات تدوى معا كأنها غدة مDAQ
تهوى في آن واحد ، وقد بلغت من السرعة والاحكام أنها لا تكاد ترقى
في هذا الضوء الضعيف الساقط من عين النافذة العالية الصغيرة .
ومن حين إلى حين ينتصب أحد الحائكين ليحفف وجهه الفارق في
العرق .

مرة أخرى شعر عمر بحاجة قوية لا تغالب تحمله على الفرار بفكره
من الكهف إلى الصباح البارد والشوارع المضطربة بالناس . ها هو
ذا وجه صغير غارق في عينين واسعتين يبرز من الظل الكثيف ويخطو
أمامه ويتسم له . يا لها من ابتسامة حزينة ! ويكبر الوجه فجأة
ويستحيل إلى ظل كبير مقرط في الكبير . نظر عمر حوله : أن المصنع
غارق في حمى صامتة ، ونور النهار يلطو تحت القبة . ضربات المكاكيك
ويخبطات الأمشاط تتتابع متناوبة .

في هذه اللحظة زفر مولاي هو النور يقول بغير صوت :
- انتهى .. لا أستطيع ..

مد عمر أذنه : أن أذات ضعيفة مكظومة تصل إلى مسعده ، ولكن
الاذات ما تنفك تتسع شيئا بعد شيء وتستحيل إلى انشعاب كأنه
يخرج من باطن الأرض . أن مولاي يتأوه حتى لكانه يشهق بأكما .

بحث الصبي عن نظرة عكاشة ، ولكن عكاشة كان قد استند ببطونه
أسطوانة النول ، وخفض رأسه متشاغلا .

نطلق باصقالى يقول فجأة بصوته الحاد
هيه هيه ، يا شقى ، يا غبي ، انظر ماذا صنعت وانت تتأمل
الدولم غافلا ..

فتنظر عمر فرأى المصيبة ، فأرخى الخيط الذى كان يشده بيده .
الآن اناء ذهوله قد ترك كومة الصوف تتشعب خلفها عند قدميه .
فرباس صباغ على وشك ان يحتاج الى غزل ، فأخذ يرغبى ويزود
وتقريبا شديدا رغم انه رتب خيوطه بخلص من الورطة

حكاية

الحكاية

www.library4u.org

كان حمدوش راقدا على رزم من الصوف ، فنهض نصف نهوض ، ونظر في الفراغ أمامه ، وهتف يقول :

— انه لشقاء أن يعيش المرء مع اناس مثلكم ..

وظل ينظر من غير أن يرى ، كمن يسير في نومه .

ان الحائكين يتمطون ويتشاءبون هنا وهناك في الكهف ، مستسلمين لاسترخاء فترة الظهر ، ولكن بعضهم لا يزال محتفظا بهيئة الخلق في اثناء الراحة . لم يتنازل أحد فيكثر اي اكتراث بوقاحة هذا الشاب الاحمر ، لا ولا بدا على أحد انه سمع كلامه . وظل حمدوش جامدا على وضعه ذاك الذي يشبه ان يكون وضع انسان يحلم ، ثم لم يلبث أن تنهد وانقلب على رزم الصوف التي كان راقدا عليها .

ولم يتحرك بعد ذلك قط . فكان يمكن ان يظن المرء انه نام لولا أن قرط سكوته كان يشي هو نفسه بأنه في حالة عصبية .

عاد عدد من الحائكين الى انوالهم . وأخذت الاحاديث تتلاحق في المصنع كله . على أن الذين اطالوا فترة الراحة قد آثروا أن يظلوا خارج المناقشات وقد استأنف الصبية عملهم أول من استأنفوه . ان عليهم أن يهيئوا الصوف للانوال التي ستأخذ في الحركة بعد قليل .

تشاب عباس صباغ في بطاء ، وقال :

— هناك شيء يصدع رأسي منذ مدة طويلة . انني غير راض عن نفسي . لست افهم ما الذي بي . ومع ذلك لا زال أعيش كما عشت دائما ، لم أتغير . انني غير راض .

ان عباس صباغ يعمل مع عثمان الاحمر الملقب باسم عثمان الموت : لقد بدأ يعملان كلاهما منذ بضع دقائق . قال عباس كلماته تلك ثم توقف عن الكلام وعن العمل جميعا . انه يفكر ساكنا جامدا وقد فرغت عينه من كل معنى .

— أصبحت لا أؤمن بشيء أصبحت لا أؤمن بما أعمله . هذا هو الامر .

قال ذلك ودهش هو نفسه من هذا الذي أعرب عنه ، وتابع يقول في اندفاع :

— يقول كل واحد مثلا ان على الانسان أن يحب أخاه الانسان .

فمن منا يعمل وفقا لهذه القاعدة ؟ من منا يحترم جاره ؟
قال ذلك والقي على رفاقه نظرة سريعة . ان عباس صباغ فمما
كبيراً ذا أسنان ضخمة ، وعينين بارزتين عكرتين لا تستطيع ان تحدد
لهما لونا ، ووجهها متكسر الزوايا . لقد انتصب رافعا رأسه ، وكان
نظراته تبطل كل ما تصادفه . ان الصبية يخشون مزاجه الحزين .
— من منكم يستطيع مثلاً ان يشرح لى هذا الامر : اننى احب الحياة
عامة ، فلماذا احتقر اذن حياتى وأكرهها بكل ما اوتيت من قوى ؟
هه ؟ ..

قال ذلك وتظاهر بالاهتمام فجأة بشقة القماش التى فرغ من نسجها
هو ومساعدته منذ قليل ، فلم يترك عيباً صغيراً من عيوبها الا فحصه
فحصاً دقيقاً .

واستشاط باقى العمال غيظاً من اوامر شول ، وقبلوا أخيراً ان
يقوموا الى انوالهم .
وفيما كان حمدوش يمضى الى مكانه ، حلق الى عباس ، ثم بصق
في احتقار .

واستأنف عباس يقول دون ان يحفل به :

— يستحى المرء ان يقول (وكان قد اخذ يفحص الحجرة) ان حياتنا
تبلغ من الضيق ان بقية لا يمكن ان تحملها .. نعم ، أنها حياة سيئة ،
هذه الحياة التى نعيشها ، لا جدال فى هذا .

وظهر عليه الانزعاج فصمت ، ثم هز رأسه ، وأضاف يقول :

— هناك لحظات لا ينصب المرء فيها على العمل بقلبه ، فآليـدان
تعملان ، ولكن الفكر شارد فى مكان آخر ، ويشب القلق عندئذ فى
النفس ، فما نطبق بعد ذلك صبراً . يقول بعض الناس : « الانسان هو
كيت وكيت » . الانسان .. الانسان .. ان افواههم مملئة بهذه
الكلمة . الا قولوا ايها الاصدقاء : من هو الانسان الذى يعنونه ؟
أريد أن أعرف من هو الانسان الذى يعنونه ! هل يعنون بيتان ؟ هل
يعنون روتشيلد ؟ او هم يعنوننى أنا ؟ يجب ان نقول كلاماً واضحاً ،
يجب ألا نخلط جميع الاشياء فى كيس واحد ، ولا نحاولوا خاصة
أن تلقوا فى روعى أننى شبيه بذلك الذى يملك نصف مقاطعة .. لا
ولا نحاولوا ان تقنعونى بأننى اتعذب لأننى خالقت للعذاب . اننى انسان
كأى انسان آخر ..

وارداد ارتباكاً من شعوره بأنه يعبر عن كل ما يحسه . ان عباس
لا يجيد الكلام على نحو واضح . كان اذا قال شيئاً وجب ان يفهم

الناس منه شيئا آخر . . كذلك كان شأنه دائما . وتامل الحائكون الذين كانوا يصفون اليه . انهم يلقون عليه منذ الآن نظرة ضجرة لا تبشر بخير .

قال حمزة منكرا :

— انسان كأي انسان آخر ؟ كلا .

فنظر عباس الى معارضة ذي الوجه السيميك . بدا عليه انه يضيق ذرعا بهذه الملاحظة التي تحمل اليه تكذيبا بوجهه منذ مدة طويلة . وظل يحدق اليه تحديقا غريبا .

قال حمزة :

— ما نعرفه عن الحياة هو اننا لسنا بشرا كبائر البشر . . ان حمزة يتكلم بصوت عال ، ويبرز كلماته مستقلة واضحة . انه من ناحية الجسم يشبه ان يكون كتلة واحدة : ضخم الوجه ، عالي المنكبين ، سميك الاطراف . لقد تجاوز الأربعين من عمره ، وهو مع ذلك يحدق الى الناس والى الأشياء بنظرة شبيهة ضاربة الى زرقة ، نظرة خفيفة ، نافذة . وله لحية كثيفة وخطها الشيب فهي تضيء عليه شيئا من مهابة ، على ان هيئته عادية بوجه الإجمال . . كان قد نض عن رأسه طربوشه المصنوع من أحمر اللباد ، ووضعه الى جانبه ، معرضا للهواء جمجمته الصلعاء من الجبين حتى القذال .

كان عمر ، كغيره ، لا يجهل ان حمزة قد قضى في السجن سنين طويلة ، وان هناك ظللا يفشي هذا الامر ، ما من أحد يعرف حقيقة السبب الذي سجن من أجله . ويقول بعضهم ان الحبس قد يلبس أفكاره .

قال أيضا :

— نعيش العمر كله بين انوال ، في كهوف .

وكان عباس يلاحظه سادرا يفكر .

— ان نفوسنا كهذا الكهف الذي نعيش فيه . الناس في اعلى احرار ونحن ههنا غبيد . ما زيادة قرش على اجر اليوم بالهدف الذي يمكن ان يحفل به عبد .

فدمدم عباس يقول :

— حقا . . ليس الحصول على زيادة في الشقاء بالامر الذي يمكن ان يهم انسانا يريدون ان يتحرروا من سجنهم ، اناسا لا قيمة لهم . . كان عمر يصفى . نعم ، تلك هي حقيقة الحال . ولكن ما بال هؤلاء الناس يظنون ساكنين كالخجاجة .

وتابع عباس يقول :

— حقا .. ما قيمة المطالبة بكسرة خبز ؟
واضاف حمزة :

— ان اناسا وصلوا الى حد اصبحوا فيه لا قيمة لهم ، وصاروا
اصفارا ، لا يمكن ان يفعلوا الا شيئا واحدا .. هو ان يطالبوا بكل
شيء .

فأمن عباس صباغ يقول مصرا على فكرته :
— لقيمة للمطالبة بشيء ما ، لقيمة للمطالبة بمائة قرش في اليوم
.. هذا كله لا قيمة له ..

فقال الشاب الاحمر هازئا في مرارة :
— لاحظوا أنه ليس يضرنا ان يزيد طعامنا قليلا .
فأم يلتفت اليه احد .
قال حمزة :

— ان اناسا مثلنا هم مقياس كل شيء : هم المقياس الذي يقدر به
بلد ، او شعب ، او عالم .

فما كان من الشاب الاحمر الا ان لفه بنظرة هي من نوع الحقن
الشديد الذي يحتقن به قلبه ، لفه بهذه النظرة وهو يعرض شففيه .
وتابع حمزة يقول غير مكترث :

— لقد وصلنا الى الدرك الاسفل ، فلن تجدنا الطرق العادية من
اجل ان نعود فنصبح بشرا ، لا بد لنا في سبيل ذلك من ان نقلب العالم
رأسا على عقب ، وربما كان علينا ان نروعه ..
لقد أصبح في كلامه بظء ، وشيء من الارتداد الى الوراء والرجعة
الى النفس .
وعاد يؤكد قائلا :

— ان هناك قدرا يجثم علينا ، فاذا اردنا ان نفلت منه ، وجب علينا
ان نحطم كل شيء .

قال ذلك وبع صوته مرة اخرى

— علينا ان نبدل العالم والانسان .. نعم .. ولكن لا بد اولا من
هدم كل شيء ..

وخيم الصمت على المصنع . ترك حمزة جملته معلقة ، وهو يحرك
يده بحركة احتقار تكنس القضاء . وغابت نظرة الحائك في بعيد . ثم
لم يلبث ان مال هو أيضا على نوله ، واستفرقه العمل .
فرغ صبر الشاب الاحمر ، فاذا هو يقول قائلا :

- أنا مريض .
 فأجابه شول :
 - لا يظهر هذا لمن يراك .
 - لست أعرض متاعبي .
 - هل لك أن تقول نى ماهى متاعبك ؟
 - أوه .. لا شيء .. لا شيء الا المتاعب الناشئة عن رؤيتك .. عن رؤيتك فى كل يوم من الأيام التى يخلقها الله .
 قال له الشاب الأحمر ذلك وهو يرشقه بنظرة مسمومة .
 وأضاف :
 - بينما أن نفسى لتمرض من مجرد النظر اليك . اتفهم ذلك ؟
 فرفع شول كتفيه ، وقال :
 - هيا اعزف على الناي فى الطرقات ، فذلك انجح لك . اما هنا فالناس جميعا أهل جد .
 فسعل الشاب الأحمر ساخرا ، وعاد يقول :
 - نيس فى وسعك أن تفهم .. أنت حسبك أن تأكل وان تنام وان
 ...
 - يا لطيف يارب .. هل لك أن تعيد ما قلت ؟ ..

- هل تعرف يا عمر ؟ انك اشبه بفروج صغير باضه المعلم .
كان ماحى بوعنان قد ترك المصنع منذ قليل . وكان عمر يصعد
الدرج مثلث الذراعين بكيب من الصوف صبغت حديثا ، فهو ماض بها
الى فتحة قريبة ينشرها فيها لتجف . لقد انقشعت السماء قليلا ،
فشمس الشتاء تجرى كسلى وراء غشاء من غمام رقيق . ان حمدوش
يتفوه بكلام بذيء كهذا الكلام . فما ان سمع الحائكون تلك الالفاظ
التي خاطب بها عمر حتى استخفهم المرح ، فأخذت فتهقهاهم تتراكم
في العمل .

وقف عمر فقال للأحمر ، وهو يرشقه بنظرة سوداء :

- فروج أمك .

فدهش حمدوش من الإهانة ، وامطره بوابل من الشتائم .
- لسوف أسحقه لك ، هذا الرأس القذر .. سترى . اذهب

الآن ، اذهب ..

ولكن عمر رفض ان يمضي . فقال له حمدوش :

- ما الذي يسمرك هناك ؟

فحرك الصبي يده بحركة تحد ، غير ان الفاظا بذينة تقيأها الشاب
الأحمر لم تلبث ان صبغت وجهه بحمرة قائمة .

فحدق اليه حمدوش بعينين تشبهان عيني ضبع ، واستغرق
مقهتها ، فأصغى الصبي الى ضحكه مشمئزاً ، ثم خرج يسير في
الشارع الضيق .

فلما عاد ، غافله حمدوش فأمسك به من أذنيه ، وجعل يطرق
رأسه بقضبان المسددة . حتى اذا أفلت الصبي من بين يديه ، أخذ
يرشه بسيل من السباب . فأصفر وجه حمدوش ، ورفع قبضتي
يديه ، وأنهال عليه . دافع الصبي عن نفسه ماوسعه ان يدافع ،
فكان يضرب يديه في جميع الجهات على عماية ، يعينه حنق بارد .
فاستشاط حمدوش غيظا من هذه المقاومة ، فما كان منه الا ان
لطم الصبي على نقرته لكمة بلغت من القوة ان الصبي جأر حين
هوت عليه كما تجار بهيمة من الهائم .

صاح الحائكون يقولون :

— ما بك يا حمدوش ؟ انك توشك أن تقتله .. هل تريد أن تقضى
باقى عمرك فى السجن ؟

أن عمر لم يدق طعاما فى ذلك اليوم . اضطربت عيناه . أحس
أنه ينهار . ركبته تنثنى وترتعشان . لم يفهم ماذا حدث له .
ثم هاهو ذا يهجم على خصمه ، فما هى الا لحظة حتى أخذ الأحمر
يموء بصوت أبح :

— أرخ يدك .. أرخ يدك ..

لقد تشبث الصبى به وضغط على جوزة عنقه بيد كأنها كلابية .
حُشرج الأحمر ، وصفق الهواء بيديه ، وهو يتدحرج تحت أحد
الأنوال . ظل عمر واقفا ينتظر فى وسط المصنع . ثانية ، ثنتين ،
ثلاث ثوان . نهض حمدوش مشوه الوجه من فرط الحنق .

صاح الصبى بكل ما أوتى من قوة :

— قدر ، غدار ، خائن .

فمال حمدوش عليه ، وقرب وجهه من وجهه . أن حذقتيه
تقدان اتقادا وحشيا . صمد الصبى . وزفر يقول له عند أنفه :

— ابن كلبة ..

فاذا بصفعة حارقة ، معمية ، تسقط على وجهه ، فتطرحه أرضا .
ولكنه سرعان ما نهض من جديد ، فوثب على حمدوش ، وطوق بيديه
رجليه ، ثم غرس أسنانه فى ربلتى ساقيه . أعول حمدوش من
الآلم . وتوقع عمر أن يقتله الأحمر .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وما وقع مآل الصبى ذهشة .
ذلك أن عكاشة قد أبعد الأحمر بحركة من ساعده ، ودفعه الى
وراء ، فتقهقر الأحمر حتى اصطدم بالسلم ، فسقط على درجته
الأولى . وانفجر المصنع كله يضحك مقهقها . واستشاط حمدوش
غيظا ، فاحمر وجهه احمرارا شديدا ، ووثب نحو عمر . ولكن
عكاشة التقطه من ذراعه . فأمسك الأحمر بقبضة عكاشة يحاول أن
يخلص ذراعه منها ، ولكنه عجز عن فك عقدها . فقال معولا .
— دعنى ..

تركه عكاشة فانتصب بقف أمامه دون أن يتحرك ، وهو يرتعش
شاحب الوجه ، ثم دار على عقبه ، ونفض الغبار عنه بحركات آلية ،
ورتب سترته ، ومضى يجلس الى نوله .

في آخر النهار سحب عكاشة الصبي ، وسارا جنباً الى جنب .
كان الفتى يشعر بشيء من الخوف .
قال له عكاشة :

- ما حدث حدث ، فلا نتكلم عنه بعد الآن . ولكن عليك في
المستقبل ان تسلك سلوكاً حسناً . وعليك خاصّة ان تتجاشى
المشاجرات .

وهم عمر أن يحتج قائلاً ان الاحمر هو الذي اعتدى عليه . ولكن
عكاشة تابع يقول :

- .. والا أدبتك بنفسى . حذار ..
فتأثر الصبي بما كان في نظرة عكاشة من حرارة المودة ، فعدل
عن التشنكى .

وأردف صاحبه يقول :

- دعك من الاحتكاك كثيراً بعمال الكهف والا ندمت .

فلم ينطق الصبي بكلمة . حتى اذا قطعاً شوطاً كبيراً ، وقف
عكاشة عن السير ، وقال له وهو يضحك انه قد رافقه مسافة
بعيدة ، ولا خطر الان ان يعترض الاحمر سبيله .
ثم أضاف فجأة :

- لقد كنت في المدرسة ، فلابد أنك تفهم أموراً كثيرة .

قال ذلك وهو يرقب عمر على نحو خاص .

- نعم .. خسارة ان تعمل في مصنع نسيج . مهنتنا هذه
لا قيمة لها .. انظر الى حالى : هذا كل مايمكن ان تبلغه انت في
ذات يوم ، فاذا صرت مثلى بقيت على هذه الحال الى آخر حياتك .
فكر قليلاً تفهم عني ما أقول .

قال عكاشة ذلك وابتمسم ، ولكن وجهه كان في هذه المرة مظلماً .

- أنظر الى باصقالي مثلاً . انه لا يكاد يصلح حتى للقيام بالاعمال
التي يقوم بها الصبية .. هه ؟ ومع ذلك فقد أنفق حياته كلها أمام
النول . أما أنا فأمل أن أفطس قبل أن أصل الى الحال التي وصل
اليها . عليك ان تتعلم شيئاً آخر ياخى . ثم ان كل شيء سيتم
صنعه بالآلات عما قريب . بعد عشر سنين لن يكون هناك حائكون .
لنموت تروى في المستقبل ان ما أقوله لك الان هو الحق عينه .
وافترقا .

كان الظلام قد خيم . وهذه ريح باردة تهب من الشمال . غير
ان عمر لا يصفى الا الى الفرح الذى يقضى فيه كهصفور مختبئ .

ان تحذيرات عكاشة قد مست فكره مما خفيها فلم تخلف فيها
اثرا .
وفي الغداة ، اقترب عكاشة منه ، ووضع يده على كتفه ، قائلا
له :

- هل الحال اليوم أحسن ؟ هل هدأت ؟
فدمدم عمر بكلام مرتبك ، وهو يضطرب على سرور .
ضحك عكاشة ، قال :
طيب طيب ، هيا ..

عمر يعمل . الكهف يضج بهياج سريع يسرى بغير كلال في هذا الركام العجيب من الانوال والدواليب والمكاتب . عمر يراقب انظلال التي تمغمغ وجوه الحائكين . وتمضى الساعات تلو الساعات متشابهة ، كالحبة ، تنضح ضجرا لا ينقشع . المكايك تفرقع ، والامشاط تلتطم .

لقد أدرك الصبي بعد بضعة أسابيع من الاستنقاع في هذه الحفرة ، ما في حالته الجديدة هذه من جد .

حتى زعيق أمه أصبح لا يشب الا من حين الى حين . صحيح أنها لا تزال تؤنبه ، أو تتظاهر بأنها تؤنبه ، غير ان فرحا قويا قد أخذ يملأ جوانب نفسها .

كان عمر يعود الى البيت في كل يوم من أيام السبت حاملا في جيبه اجر الأسبوع ، وهو عشرون فرنكا ، فما يكاد يضعه في كف أمه حتى تأخذ تدعو له بصوت خافت :

- الله يسعدك ، شكرا يا بنى ..

هذا عمر يحل الخيوط المتفتلة وهو يفكر . فاذا بأغنية نحيلة عذبة تصل الى المسامع من آخر الكهف :

- أواه يا أمي الحبيبة .

ارتعش عمر كأن الجو قد ازداد بردا على حين فجأة . ان زبيش هو الذى كان يرثم بصوت ضعيف . وامتلا الكهف شيئا فشيئا بالصوت البطيء النحيل الذى لا يكاد يكون أقوى من صغير صرار الليل .. وتبعه صوت آخر ، ثم تبعته أصوات أخرى .. ان الغناء يترجح غمامة في سماء الشتاء . لم يلاحظ زبيش ، الذى كان يحاول أن يسكب في نواحه روحه كلها ، ما أيقظ حوله من انتباه . وكان وجهه يبدو ، في بعيد ، ساكنا جامدا كوجه من يحتضر . لهاله كان لا يعرف هو نفسه لماذا أخذ يغنى . ثم أخذ يلهث . ان أنفاسه تضعف لحظة بعد لحظة . وتنهذ أخيرا على حين فجأة :

- آه ...

وتوقف عن الغناء ، واغمض عينيه . خيم الصمت ثقيلًا

كالرصا ص . غير أن الصبي حاول محاولة أخرى ، في عزم مستميت
فأخذ الصوت الرخيم يسرى من جديد في الظلمة الخائقة التي ترين
على الكهف . ولكن الأغنية ما لبثت أن خارت مرة ثانية ، فأمسك
الصبي عن الفناء ، ودمدم قائلاً :

— عيث ، لا فائدة ..

صاح شول يخترق الصمت بصوته الفظ :

— هيه .. زبيش ...

فأجابه الصبي المفلوب على أمره :

— ماذا ؟

— هل نسكر الليلة ؟

— آه .. أتمنى لو امتلأ بالخمر امتلاء .. امتلاء ..

لم يقل الآخرون شيئاً . أنهم أطيا فخرساء استتبدها
اضطراب شديد .

صاح شول يقول مصطنعاً نبرات السكر :

— آى .. هات .. املا الكأس ..

فأضاف زبيش :

— هنا .. في هذا المكان نفسه .. دون أن تتحرك ..

قال ذلك وأخذ ينق نقيقاً دام مدة طويلة ، وانتهى بتأوه غير
مفهوم :

— آه .. آه ..

قال حمدوش :

— زبيش أيضاً مريض النفس .

فقال قوطي الأمين ناهراً في قسوة :

— لقد أفسدتم أنفسه . هذا هو السبب .

فنظر إليه شول يقيسه من الرأس إلى القدمين ، ثم كسر عن
لشيه الزرقاوين وقال :

— أي اثم اقترفنا ؟ ألا يجوز للمرء أن يمزح بعد الآن ؟

وقال مصطفى رزاق محتجاً بصوته الأغنى :

— النفس لا يمكن أفسادها . كيف يمكن أفساد النفس ؟ أنها

كهذا النور ..

قال ذلك ورفع نظراته نحو المصابيح المشتعلة المعالقة بأسلاكها .

ثم عاد العمل يجري في صمت . أن كآبة قائمة قد جعلت
الحائكين ينكبون على أنوالهم كأنهم صم . نظر عمر إلى عيني شول

وهو يتسسم في سخر خبيث . فاذا هو يشعر بجميع اثقال ذلك العنف الذي كان يرين في المصنع تنصب عليه . أحس أن غولا من الفيلان التي يراها النائم في الكوايس ينشب في كتفيه أظفاره الحديدية . وما انقضت بعد ذلك ثانية واحدة إلا في بطاء رهيب . أن به رغبة قوية خانقة في أن يصرخ معلنا سخطه على هذه الحياة التي يعيشها ، وصعدت هذه الرغبة حتى صارت على حواف شفقيه - جاء المعلم يا أولاد ..

أن زيبش الذي يترصد دائما ما يحدث في الخارج هو الذي صاح تلك الصيحة القوية . وما هي إلا لحظة إذ بالمعلم يظهر في أعلى الدرج فعلا . استمر العمال في عملهم . غير أن بعضهم قد رفعوا رؤوسهم في تردد ، ثم ما لبثوا أن عادوا يعملون في نشاط محمود .

سأل ماحي بوحنان بلسان متعثر :

- كيف الهمة يا أولادي ؟ يا الفتية الشجعان .. مرحى .. أن الانسان ليفرح حين يرى كيف تعملون ..

واضاف يقول دون أن يتوقع أحد ذلك :

- حقا لأشئ في هذا العالم ولا أحد يستحق أن يحزن المرء عليه . ما ينبغي للانسان أن يقلق أبدا . كل شيء إلى زوال .. وحرك ذراعه في الهواء في تراخ . وقال عبارات غامضة لها مظهر الكلام الفلسفي أو الاخلاقي - لا يدري المرء ماهي - وظل ينظر أمامه كمن يحاول أن يتذكر أمرا من الامور . ثم هز بده بأشارة مباغتة ، وقال بلهجة قاطعة :

- هيا .. العمل خير من كل شيء .

ثم اجتاز درجات السلم في وقار وجلال ، وذهب كما أتى : صلبا ثقيلًا تؤكد كل خطوة من خطواته مهابة ما ينبغي لأحد أن يماري فيها

قال الأحمر ساخرا :

- المعلم شارب قليلا :

فقال شول مزمجرا :

- كفى هراء ..

ولد الربيع في ليلة . انبثق انبثاقا مفاجئا : سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل . المدينة تفتح رثيها وقد تخلصت من الثقل الذي كان جائها على صدرها . أوراق الاشجار عادت تثبت على الاغصان السود التي غشيتها رغبة خضراء . والنهار استرد دفئه الجميل . الناس يرفعون أنوفهم في الهواء متطلعين الى بشائر الخير في اشراقة الشمس وأولى زقزقات العصافير .

وظهر المتسولون في أيام الربيع هذه أعجب وأرهب مما ظهروا قبل ذلك . هم عاشوا حتى الآن ، وكيف ؟ لا يستطيع احد أن يعرف ذلك . انهم يتسكعون في الشوارع ، وقد اكتست وجوههم هيئة من يتذكر شيئا نسيه منذ زمان بعيد . يسرون في حذر ، لا ينظرون الى احد ، يمسون الناس دون أن يروههم .

وحدث في الكهف شيء من الفتور . اضطرب النشاط ، واضطربت الاصوات . الحائكون لا يزالون يعملون على أنوالهم في همة ، غير أن بعضهم أخذ ، على حين فجأة يفتى بصوت جهر . لقد تسلمت الى الجو المحصور الخانق نشوة صعدت الى رعوس العمال ما يكاد يتنفس الصبح حتى يكون عمر قد حمل الى المصنع الصوف المشتري من سوق الفزل . ان سعادة هذه الاسحار الندية المشرقة الباهرة الطراوة تخزه وخزا وكأنها الشوك .

فمتى وصل الى المصنع بدأ عمله في تكبيب الفزل ، ثم مضى يشتري للعمال ما يطلبون اليه شراء . ان نفسه الان أقل ظلمة وحزنا . انه يصفى من بعيد الى الاحاديث الفاترة العابسة التي تدور بين العمال ، وهو فيما يشبه الخدر . وهو يسعى بعد ذلك الى بيت ماحي بوغانان في « باب زير » يأخذ قفة ويتلقى أوامره . انه مكلف بشراء ما يأمره المعلم بشرائه من السوق لبيته . غير انه لم يقم يوما بهذه المهمة على النحو الذي يرضى رغبات السيدة زوجة بوغانان ، فهو ما ينفك يصفى الى انتقاداتها مطرقا في خشوع . ومن أجل أن يساعد العجوز باصقالى الذي اصبحت الشيخوخة تعجزه في بعض الايام عن القيام بأي عمل من الاعمال ، كان يلف

سداة « الطرارة » الرقيقة كناعم الشعر . وبعد ذلك بقليل أصبح يحمل الصوف الى المصبغة ، ويعود به الى المصنع فور اخراجه من مرحله الأسود .

على أنه رغم نهوضه بهذه السخز التي لا تعد ولا تحصى ، لم يكن ليرضى أحدا .

فلا بد أن يلاحظه أحد دائما باهائاته وتوبيخه . وقد ألف هو أن يشتم حتى أصبح لا يعيا بالشتم . غير أن الأمر الذي لا يريده هو اللطمات والمكايك التي تقذف الى رأسه . وكان الحائكون يرشقونه ببصاقهم متى اتفق ان جاءت إحدى مواسير الغزل التي كبتها متشرجة الخيوط .

كذلك كانت الحال .. انهم يفرغون على الصبية بعض ما تراكم في نفوسهم من حنق . انهم لا يكفون عن سبهم . هذا عمر يحل خيوطا متفتلة وهو يفكر . فاذا حمدوش يلاحظ صمته ، فيقول له ساخرا :

— هل غرقت سفينك المحملة بالزعفران ؟

فما يجيبه الصبي ، وانما تزيد كلماته اقتناعا بأن الاحمر غبي غباوة لا براء منها .

ان عمر لا يشعر بالصدقة الا نحو عكاشة الصموت . ان عكاشة يوحى اليه بالثقة . وهو يذهب الى لقائه كل يوم من ايام الاحد في ذلك المطعم الواقع في آخر شارع صغير مزدحم بالناس في المدينة الواطئة ، فهناك كان يحاو للحائك ان يحتسى الشاي .

لم يحتمل حمدوش هذا الصمت العنيد في عمر ، فصاح يقول :
— أمر هذا الحيوان الكبير أمر عجيب .. فهو ماينفك يجتر أفكاره وراء رأسه ..

وبعد لحظة ضرب الاحمر الصبي الأشود زبيش ضربة قوية ، لسبب تافه هو أن الصبي تأخر في العودة بالماء الذي ذهب يملأ به القادوس من العين التي بالحى . لقد ظمى حمدوش فلما أراد أن يشرب لم يجد هذا القادوس الذي كان الحائكون يطفئون بمسائه ظمأهم .

لاذ زبيش بركن وراء الصندوق قرب عمر ، وأخذ يشهق . أنه منكش على نفسه ، ترتعش أعضاؤه كلها ارتعاشا شديدا ، وهو يشد على جفنيه شدا مؤلما . حاول عمر أن يواسيه . فسمعه يدمدم بصوت تقطعه الشهقات .

- سرت افسان . فلينتظر . . لا قدفن وجهه بكتلة الحديد التي
 وزنها رطل .
 سألته : لماذا يدع لغيره أن يضربه . فلم يجبه الخش الصغير
 بشيء
 أن عمر يحاذي هذا الأحمر الذي كان ميله الى الشر
 دائما .
 ولم ينقض يوم ساعة الا وكان صوت زيش يرن في الكهف فريحا
 مرحا . ثم
 تستحشه .
 الايام تنقضي
 حدة في ادراك الأمور ، لقد أكسبه عمله في الورشة خبرة كبيرة .
 أصبحت المعاملة السيئة لا تترك في نفسه مثل الأثر الذي كانت
 تتركه اول عهده بالعمل في المصنع . لقد تعلم كيف يحمي نفسه .

عند عين الماء التي تسمى « عين ليون » لاحظ عمر حشدا كثيفا من الناس يملأ ميدان « بليق » . كان الصبي عائدا من المصنع عن طريق ممر « سيلاق » ، وشلل من الصوف في مثل حجمه تكسوه من قمة الرأس الى أخمص القدمين بفروة كبيرة تتقاطر منها ألوان حادة فاقعة : أحمر وأصفر وأخضر وأزرق . . اقترب من الحشد ، فصاح به ثقيل يقول :

- اركض بأصيفتك يا صبي .

فأصم عمر أذنيه عن سماع كلامه ، فأغضب الرجل أن الصبي لم يكثرث له ، فشتمه وقال :

- ألا ترى أنك ترش الناس جميعا ؟

وظل عمر صامتا لا يجيب . وساعدته الشلل المبللة في أن يشق لنفسه طريقا بين الحشد . كان الناس يصرخون مستنكرين ، ولكنهم يفسحون له الطريق .

أن في وجوه المستطلعين من هذا الحشد دهشة لمنظر غير مألوف وتطلع عمر فلم يلمح إلا قلة بلهاء من أولئك الحفاة الذين يسكنون المدينة منذ مدة قصيرة . لقد نظمت السلطات حملة لجميع هؤلاء المتسولين . وكان الناس يقول بعضهم لبعض متهامسين أن سلسلة من التدابير قد اتخذت للوصول الى هذه النتيجة . أن رجال الشرطة تخفر الآن هذه الأشباح التي تئن .

- كانت المدينة هادئة ، وكانت مؤدبة الى أبعد حدود التأديب فإذا بهؤلاء الأفراد يعكرون صفوها .

هذا ما قاله تاجر متدثر برداء من جوخ ، مستنكرا في وقار ورضا .

فقدم مازح يعقب على كلامه بقوله :

- أحالوها الى خان .

فمقمغ التاجر :

- بل أحالوها الى ما هو أسوأ من الخان .

ثم أضاف يستشهد جيرانه الذين كانوا يقفون على مقربة منه .

— ما تراكهم في مكان لا عمل لهم فيه ؟ ألم يخلقوا على هذه الأرض
— وهم اناس لا ينفعون انفسهم ولا ينفعون غيرهم — الا ليزعجوا اولئك
الذين يريدون أن يعيشوا حياة كريهة ؟
وفي أثناء ذلك ظهر أحد أعضاء اللجنة الخاصة التي شكلتها حكومة
فيشي ، فاذا البله يتدافعون حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضها .
وأراد الرجل في أول الامر أن يعرف من أين كان يخرج هؤلاء
الشحاذون . ولكن الأمور لم تلبث أن ظهرت أعقد مما كان يمكن
تصوره . لم يتصد أحد من الناس لإيضاح هذا اللغز .

وسئل المتسولون أن يبرز كل منهم أوراقه ، فأتضح أنه ليس
بينهم أحد يحمل أوراقا ، لا ولا فهم أحد منهم ما معنى ذلك . وتقرر
عندئذ استجوابهم ، فأجابوا جميعا بأنهم غير مستعدين لأن يروا مرة
أخرى الجحيم الذي غادروه .
— ستموت هنا .

لماذا يعلنون هذا القرار المشؤم ؟ لم يخطر ببال عضو اللجنة أن
يسأل عن هذا الأمر ، وقالوا يوضحون : أنهم على كل حال يجهلون من
أين أتوا . ولم يمكن استدراجهم الى مزيد من الكلام .

فزاد ذلك في اضطرام حلق ممثلي السلطة ، على اضطرامه من قبل .
إن هذا الكهل المحلوق الذقن منذ قليل ، المتزين عنقه برباط جميل ،
شديد الاحتفال بوقاره . كان واضحا أنه لم يخلق للاهتمام بمثل هذه
الأمور . أنه لا يفهمها . ولم يعرف بم يبدأ ، حين رأى الناس ينتبهون
اليه ذلك الانتباه الشديد .

وما لبث أن أعلن في صلابة وحزم أنه سيأمر بأرجاعهم .. نعم ،
سوف يظهر المدينة منهم .. لا بد من استئصال هذه الحشرات ..
إن المرء يحس لدى كل خطوة يخطوها في المدينة أنه يتعرض لأشد
الآخطار . هل ينبغي لأحدنا أن يذبح أمام باب منزله ، أن يشهد نهب
بيته ، أن يرى امرأته ...
— أحم ...

كذلك صوت أحدهم ، فسمع جميع الناس هذه السعلة الجريئة ،
وما كان أشد دهشتهم حين سمعوا ذلك الرجل الذي قال « أحم » ،
يضيف قوله :

— هؤلاء ليسوا حشرات . إن الحشرات التي انقضت على بلادنا
هي التي صيرت أخوتنا الى هذه الحال .
فلما سمع عضو اللجنة المكلف بالشئون العامة هذا الكلام احتاج

أهتياجا شديدا ، وأخذ يضطرب مرتعشا . قال يسأل متخطيا بنظره
من حوله :

— من تقوه بهذه الكلمات ؟

فقامت في الحشد حركات مضطربة ، وانطلقت أصوات . ثم لم
يلبث الصمت أن خيم . لم يعرف أحد من ذا الذي أقحم نفسه في
الامر هذا الاقحام الخطر .

ولم يخامر أحدا شك في أنه قال هذا الكلام ثم انسل واختفى .

وفرق رجال الشرطة الحشد . غير أن الشاس لم يلبثوا أن
تجمهروا في بعيد جماعات ، وعادت الألسن تتحرك وقد انجلت عقدها
وأقبل على المثرثرين شيخ طويل يسير بخطا بطيئة .

— ما الذي تعرفونه عما وقع لهم ؟

قال الشيخ ذلك ، وهو يصوب لحيته التي بلون الزعفران الى جهة
الشحاذين الذين لم يتحركوا من مكانهم .

— ماذا تعرفون عن الأسباب التي انتزعتهم من الركن الذي كانوا
يعيشون فيه من الأرض ؟ أيها المسلمون ، لا تتكلموا في طيش إذا كنتم ..

وهنا انبرى مسخ قصير تتدلى عليه مريلة حذاء ، فقال يقاطع
الشيخ ويمنعه من اتمام جملته :

— يا لهذا العصر الذي نعيش فيه !

وقال رجل حكيم :

— صدقوني .. أن تعاستنا ليست بنت اليوم ، وإنما هي ترجع

الى عهد بعيد . فيم نقلق إذن ؟

— ولكن لهذه الأزمان أثرا فيها .

— هبوا ذلك .. أن هذه الأزمان تكشف عن الجرح .. ولكن

الجرح ينزف من عشرات وعشرات السنين . كل ما هنالك أننا اليوم
نرى الجرح رؤية أوضح .

صاح الحذاء القصير يقول مرة أخرى في دهشة :

— لا أستطيع أن اتصور أن شعبنا تحمل آلاما كهذه الآلام .

فقال الحكيم مؤكدا :

— أنه يتحملها .

مضى عمر . أن هذه الامور ليست بنت اليوم . هيهات أن تكون
بنت اليوم .

الى اين اقتيد هؤلاء المسؤولون بعد ان أخذوا من « بليق » لا لقد
ألقى عمر هذا السؤال على نفسه مرارا . والأشخاص الذين شهدوا
هذا الترحيل ظلوا بعد ذلك في هم . ان رغبة عمياء في انزال العقوبات
كانت ما تنفك تزداد ضراما في نفوس الاوربيين . كان النوع الانساني
لبث يجهل الشر الى ذلك الحين ، ثم اذا بالحياة تمتلئ فجأة بالمناظر
الكريهة والحوادث المضطربة .

كان ينبغي قبل كل شيء الرجوع الى مصدر هذا التكاثر الهائل في
المشردين . انهم كلما دفعوا عن المدينة ازدادوا تهاوتا عليها . ذلك
ما كان يتكرر كل يوم . والحاذق الحاذق من يحزر ، على كل حال ،
هل الذين يهبطون المدينة هم اولئك الذين أخرجوا منها فطابوا عنها
غيبوبة قصيرة ثم لم يلبثوا ان فروا عائدين ، أم انهم واعدون جدد ،
والحاذق الحاذق من يحزر أيضا هل اقامتهم ههنا هي خاتمة مطافهم ،
أم انهم لا يمكنون في المدينة الا الى حين ثم يولون وجوههم شطر امكنة
أخرى فعل الطيور المهاجرة تدفعهم غريزتهم خفية . ان المرء لا يستطيع
ان يميز بعضهم عن بعض . انهم جميعا سواء : وجوههم المنكسرة
المتنفثة ، الغبار الاسمر الذي يكسوهم ، الاسمال الرثة التي
يلبسونها ، النظرات المسدودة التي يجيلونها ، الاجسام المتهاكة التي
يجرونها جرا ..

وكانوا يسخرون بعالم النظام والاغنياء الذي يجاورونه .
ما كانوا يريدون ان يفعلوه هو ان يعسكروا صفا على حافة الطريق ،
وقد اداروا ظهورهم للمارة .

حتى الفنادق الموسرة أصبحت لا تستاء من هذه الفوضى ، وحتى
المباني القاسية التي تشغلها أجهزة الحكومة أصبحت لا تضيق بهذه
الاهانة . ولكن سكان تلمسان كانوا يرصدون ، وهم يشعرون بالمدلة ،
آثار الخزي هذه ، التي اختبأت طويلا ثم اختارت هذه الساعة
التكشف لهم عن وجهها القاسي .

وكانت قد هاجرت من واجهات المخازن ، البضائع الثمينة ،
وصناديق الحلوى الفاخرة ، وعلب الاطعمة المحفوظة المشهية ،

والملابس الانيقة ، والحلى الجميلة ، والساعات الدقيقة ، وسائر الوان الرفاه .. هاجرت من واجهات المخازن ، ولم تحل محلها ، اذا أمكن أن يحل محلها شيء ، الا سلع رديئة ، الا بدائل كما كان يقال . فكانت هذه السلع تمكث وراء الزجاج بعض الوقت ، فتبهت ، ثم ما تلبث ان تدخل في ذلك الاغبرار العام ، في صحبة صورة مارشال عجوز .

وقامت البلدية ببضع محاولات أخيرة يائسة . ولكن موجة البؤس الانساني لم تنحسر ، بل امتدت شيئا فشيئا حتى غطت كل الارض التي فقدتها . وكلما قامت حملة جديدة ، أسرعت أسراب من المتفرجين تتجمهر ، فاذا بذلك الصوت يعود يردد في وسط الحشد صائحا :

— هؤلاء الناس ليسوا حشرات . انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال ، وهم يعيشون على اجسامنا .

كانت هذه العبارات تتردد هي نفسها كلمة كلمة على وجد التقريب ، وتنتهي دائما بصيحة عالية تقول :

— اعطوهم طعاما ، ذلك اولى بكم .

وظلت تلك الشخصية الخفية التي تلقى هذا الاتهام مجهولة لم تعرف . ولكن سرعان ما ألف المرتادون لهجتها القروية ، القاسية الساخرة ، فافتادهم رجال الشرطة غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا منهم بشيء . لولا تواطؤ الناس ، لقبض على الرجل الجريء منذ زمان بعيد . وأصبحت السلطات منذ مدة لا تهتم بأن تنسب هذا السخر الى وجه بعينه .

— اعطوهم طعاما ! ولكنكم لن تقدروا على ذلك !

هذا ما كان يسمع .

والبله المتجمهرون حول « عين ليون » يرتعشون . انهم غير حائقين . ان أخوة غامضة تشد القلوب الى القلوب »

أتمت السلطات شحن عدد من سيارات النقل بأواخر فصائل هؤلاء المتسولين . فالمدينة الآن حرة . إنها تنفس . استردت الشوارع وجهها الجميل ، كما كانت في الماضي ، وهو ماض يرجع عهده الى أمس القريب ، ولكنه كان قد أمحي في بلبلة هذه الأزمات المضطربة . الناس يتجولون الآن في المدينة دون أن يصطدموا بانقفايات . غير أن حجابا من حداد حزين قد ألقته على المدينة تلك الجماعات الساعية الوضرة التي غابت الآن عن الانظار ولكن ذكرها لا تزال ماثلة في الأذهان .

الى أين ذهبت سيارات النقل التي شحنتوها بهم ؟ ماذا صنعوا هؤلاء الرجال والنساء والأطفال ؟ آه . . . كم تبدو الشوارع أنيقة . وعلى أن الجو لم يدفأ الا قليلا فان البرد أخذ يخفي أظافره على هون من الأشعة المتلاثلة . ثم غمق لون السماء وقسا ، وما حاءت الظهيرة الا والشمس قد كثفت كما يكثف المريب ، والتهب الهواء . وظهروا مرة ثانية . ظهروا في هذه المرة ظهورا لم يتوقعه أحد ، وعددهم الآن أكبر من عددهم في اليوم الاول . تساءل الناس عن هذه المخلوقات ما هي ؟ قيل لهم أنهم يجيئون من الداخل ، من أمكنة أبعد من البلاد المحيطة بالمدينة ، وأن عددا كبيرا منهم قد قطع عشرات القراسخ . أنهم يتهافتون على المدينة من أراضي الجنوب . البلاد كلها تهتز أذن وتضطرب . أنى لسكان المدينة أن يعرفوا ذلك وهم يعيشون بمدينتهم في عزلة كأنها عزلة الرهبان في الدير ؟

ثم إن الناس لا يزالون يكتفون بالمضى الى شئونهم الخاصة . فان انهموم لا تعوزهم ، ولكل يوم من الايام نصيبه من هذه الهموم . ان لهم أعباء تشغلهم عما عداها . ومع ذلك أغرقت هذه الاحداث اكثرهم في وجوم عميق . فما ان يذهب أصحاب الحرف الى دكاكينهم عند مطلع الصبح ، وما ان يفتح الباعة أبواب حوانيتهم ، وما ان تنتشر جمهرة العمال في المدينة ، حتى تكون الشوارع المزدحمة قد أوشكت أن تسدها جموع هؤلاء المتسولين سدا . وكانوا يزدادون في كل ليلة عددا .

الحق أن منظرهم خشن مفرط في الخشونة . كان كثير من الناس اذا لقوهم امامهم لأول مرة ، لم يروا فيهم ما يجذبهم اليهم ، ونفروا من خشونتهم . وكان بعض الناس يشيحون بوجوههم عنهم مروعين وهم يقولون : « لست أعرف نفسي في هؤلاء » .

الملامح الفائرة ، والعظام النائية ، واللحي الشعشاء ، ذلك كله ليس يلفت النظر كثيرا في هؤلاء الصعاليك : ان هذه الرؤوس التي كأنها رؤوس خراف ، شائعة في الريف . وانهم صامتون لا يتكلمون ، ساكنون لا يتحركون الا قليلا ، فذلك معروف في ضفاف العقول . غير ان هناك شيئا واحدا يخطف البصر فيهم : هذه الاعين الثابتة المسخورة .

ورتبوا امورهم مرة أخرى من أجل أن يعسكروا في الطريق العام . كان الاوربيون ، اذا صادقوهم ، يظهرن الامتعاض والاشمئزاز . فكان عمر يشعر من ذلك باستياء : انه يحس ، شاء أم ابى ، ان هؤلاء الحفاة منه وانه منهم .

ود عمر لو يعرف كيف كانوا يستطيعون ان ينتشروا في كل مكان . انهم كلما أبعدوا وكلما طردوا عادوا وقد ازدادوا عددا حتى ان السلطات نفسها قد دب اليها اليأس .

اما عن التحدث اليهم ، فان المرء ليراهن انهم يتكلمون لغة أخرى . ثم انهم لا يظهرن أية حاجة الى عقد أية صلة بالمدينة . كان يبدو عليهم ان مشاغل أخرى تملأ رؤوسهم ، وتضعهم في خارج هذا العالم . على أن عددا كبيرا من السكان أصبحوا يعطفون عليهم بعد تفكير ، وأصبح الناس لا يستاعون منهم رغم أن مظهرهم المتجهم لا يشجع علي التودد اليهم والعطف عليهم . وكان بعض الناس اذا رأوهم جالسين جنبا الى جنب ، آباء وأمهات وأبناء ، وهم يقضمون كسرة من الخبز قاسية كأنها الحصى ، يذرفون عليهم دموعا من شفقة .

ولئن كانت جموعهم ما تنفك في ازدياد ، فانهم لا يصبحون من ذلك أشد جرأة ولا أكثر ثقة بأنفسهم . وكانوا يمضون باحثين عن أمكنة جديدة في غير انقطاع ، لا يبدو عليهم انهم سيعودون أدراجهم الى حيث كانوا .. ولكن .. ولكن أكانوا يتخذون المدينة ملجأ لولا أن مكثهم فيها الى حين ؟

وما هي الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا ترى أسرة من الاسر ، مهما تكن فقيرة ، الا وتقدم اليهم شيئا من طعام . صحيح ان ما يقدم اليهم لا يزيد على كسرة رقيقة من خبز ، ولكن هذه الكسرة الرقيقة

من الخبر كانت تقدم اليهم على كل حال . اصف الى ذلك ان شعورا بالتضامن قد اخذ يدفع نحوهم كل فرد من الافراد .

وكان الاوربيون بطبيعتهم لا يمارسون الصدقة ، لذلك كان هؤلاء المسئولون لا يذهبون الى بيوتهم مستعطين . ان الاحياء التي يسكنها اناس من اصحاب الحرف والعمال والباعة التجولين وغيرهم من فقراء الناس ، هي التي كانت من بين سائر الاحياء تهب الى التخفيف عنهم . كانت ابواب البيوت التي لا توصل ابدا تستقبل منهم مواكب لا تنقطع .

وفي جوف الليل ، بينما الناس نائمون ، كانت ترتفع في بعض الاحيان على حين فجأة شكاة اليمه . وتظل الشكاة تترجح الى غير نهاية خلال الشوارع الصغيرة المظلمة ، تتلمس طريقها من وراء الجدران ، الى قلب غاف من قلوب البشر .

حتى دار سبيطار أصبحت منذ ذلك الحين تجد السبيل الى مساعدة هؤلاء الاقرباء الجدد الذين أتت بهم النكبة . كانت عيني تقول :

— هؤلاء اخوتنا دما ، وضيوف ارسلهم الله الينا ، فاهلا بهم وسهلا . وسوف نستقبلهم ولو لم يكن في بيتنا ما تقدمه اليهم غير الماء ، وسيفهمون ان بنا من الفقر والعوز مثل الذي بهم تقريبا . لا يزال في هذا العالم رحمة . لن يقال اننا طردنا اخوتنا لاننا نملك ماوى ولا يملكون ..

والحق ان حياة دار سبيطار لم تكن بالحياة الرخية ، حتى ان اهالها كانوا يطلقون عليها اسم : اللعينة ، ومع ذلك كانوا يرونها ، على علاقتها ، اهلا لان يتعلقوا بها ، وان يساعدوا غيرهم على ان يحيا وكثر عدد الموتى في اثناء ذلك . ما أكثر الفقراء المساكين الذين كان يطلع عليهم الصباح وقد لفظوا انفسهم الاخيرة دونما جليلة ! وما أكثر الاحياء الذين كانت وجوههم الملطخة بالوحل ، وشفاهم المضمومة ، تسود اسودادا غريبا ! . وهذا بعضهم يزحف زحفا بطيئا الى مخابىء مجهولة ، ثم يختفى عن الانظار ، فما يراه بعد ذلك احد .

كان هؤلاء الناس يستأذنون العالم بالانصراف ، في تكتم لا نظير له ، حتى لكانهم يعتدرون عن ان عليهم ان يموتوا . كانوا يموتون . . فيفحصهم طبيب البلدية الشرعى ، فيشهد بأنهم ماتوا .

لو رأيته يدلف الى الكهف لقلت انه سقط اليه سقوطا كحجر ، ولم يدخل فيه دخولا . هكذا عبط الى الكهف ومضى بجثم قرب باصقائي . ان انفاسه تهدر . وخيم صمت كبير . انه واحد من أولئك المتشردين البؤساء الذين يملأون رحاب المدينة . ألقى على الحائكين نظرات كأنها أسنان المخارز ، وكانت تحيط بوجهه هالات من ظلال . تذكر عمر المتسول الذي مد اليه خبزه في ذات صباح وهو آت الى المصنع . ان له هذا الوجه القاسي نفسه ، وهذه اللحية الشعثاء نفسها في الخدين الهائرين . قال الرجل بعد لحظة :

- اسمي محمد عود الشيخ . أنا عزازع من بلدة بنى بوبلان (قال ذلك وهو يشير بيده الى جهة الغرب) . لم يبق لي شيء ، فقدت كل شيء ، كل شيء ، أرضي ، وامراتي . وأولادي ... أحوالى رجال القانون بهيمة ضالة .

كان صوته هادئا ، فائرا . وكان يتأمل الجدار المتقشر الكلس أمامه . كانت الناقدة العالية تبعثر ثورا مضطربا على جسمه الغاطس فى ثنايا جلبابيه الخشنة . وصمت . وصعد الصمت من تحت الأرض .

راح عمر يستعرض ذكرياته . بنى بوبلان . يا للأيام الجميلة التى تجرى هنالك هادئة على تأرجحات الضياء . . . ولكن اللهجة الحجرية التى يتكلم بها المتشرد لم تلبث أن أخرجته من أحلامه :

- الله يحميكم ...

قال المتشرد ذلك ولم يضيف اليه كلمة واحدة . والحائكون قد جمدت عليه أبصارهم يرقبونه صامتين .

ثم اذا بأصوات ضخمة يعلو صياحها عند مدخل المصنع ، واذا برجال الشرطة يهبطون درجات السلم مسرعين ، وقد أخذت أقدامهم المثقلة بنعالهم ذات المسامير تتدحرج على الدرجات تدحرجا . ابتلعتهم ظلمة الكهف ، ولبثوا لحظات لا يعرفون الى أين يتجهون ، وعيل صبرهم أخيرا فصاحوا بسألون الحائكين :

— هيه ... اتم . انا نبحث عن شخص هارب ، اقليبي هو
هنا ؟

ولكنهم كانوا قد لاحظوا الهارب متجمعا على نفسه في ركنه .
فهمموا عليه ، وأنهضوه من ذراعيه ، وجروه . استسلم الرجل
لهم . غير انه حين صار من السليم في منتصفه وقد اُخِذ به
رجال الشرطة ، التفت نحو العمال ، فألقى عليهم نظرة أخيرة .
كانت نظره غارقة في حزن قاتل ، وقد غارت عيناه .
لم ينطق أحد من الحائكين بحرف . وأحسن عمر فجأة كأن حبلا
يُعقد على عنقه ويخنقه . تساءل : لماذا ؟

قال شول من بين لثتيه :
 - كيف كانوا يستطيعون ان يعيشوا من الارض ثم أصبحوا
 اليوم لا يستطيعون ذلك ؟ هل رقعة الارض ضاقت ؟
 فأجاب الامين مدمدا وهو لا يريد ان يتجه بالكلام الى شول
 بالذات :

— من رأى حالتهم ، من رأى حالتهم حق الرؤية ، لا يرضى لنفسه أن يتكلم في حقهم كيفما اتفق ...
— اعلم : إذا شئت أن تعلم ، أن البشر هم الذين تكاثر عددهم . هل كان في الماضي مثل هذا العدد الكبير من الفلاحين ؟ أبدا ... قال عكاشة :

- لماذا لا تذكر الاراضي التي سرقتم منهم ؟
 - لو عرفوا كيف يدافعون عن اراضيهم ، لما استطاع احد ان
 يأخذ منهم شيئا . ان الله قد ارى عدونا واضل عقولنا . انظر
 كيف يزدد انتصارهم في شوارعنا ؟ ما عساكم تقولون في هذا ؟
 حكامكم الله .

— سيأتي الاوان ..
— اي اوان ؟ الم تسمع بالقول الماثور : لو كان يباع لما رموه ؟
كذلك شأن هؤلاء .. فليات الاوان .. وتسنري .

فتنحج حمدوش ، ماذا عنقه ، مائلا بصدرة الى امام . وقال .
- المسألة ليست هذه . لماذا لا تتكلمون عنا ؟ اننا لا نريد ان
تسبب لانفسنا المتاعب ، وخاصة من أجل فلاح .. ما شأننا نحن
به ؟ ان الله هو الذي يحق الحق .
قال ذلك وتغضت راويتا عينيه ، وانشغرت شفاته .

- من ذا الذى يجرؤ أن يقول أننا جبناء ؟ من ذا الذى كان
 يمكن أن يفعل غير ما فعلناه ؟ من الذى يستطيع أن يساعد رجلا
 تطارده الشرطة أيها الاخوان ؟ لا أحد . والا كان يعرض نفسه لخطر
 كبير . . . والا كان مجنوناً . كل ما هنالك أن الرجل قد أخطأ
 حين لجأ الى هذا المكان . لقد كان يمكن أن يفعل شيئاً ما ، ولكن . .
 كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحجر يرشق بها رفاقه . وفجأة
 أخذ يضحك ضحكة طويلة مضت تصطدم بعتبة الكهف وتخرج بين
 جدرانها .
 ماذا تقول ؟ لم تقل شيئاً ؟ تخشى السوط ؟ فهمت . أننا
 راضون عن مصيرنا ، وهذا المصير أشبه بصخرة مربوطة بأعناقنا .
 قال حمزة :
 - سوف يهدم هؤلاء الرجال بلادنا ويعيدون بناءها من جديد .
 فقهقه الأحمر فقهقه قوية .
 - ونحن ، ما الذى سنعمله ؟
 تابع حمزة يقول :
 - البلاد فى مخاض هادئ . والبلاد هى هم . لقد أخذوا
 يسرون ، فالبلاد هى التى يسيرهم تسير .
 قال عكاشة متمتما :
 - هم جزء منا .
 وأظلم وجهه الذى تغطيه لحيته الملتزمة السوداء .
 وعاد حمدوش يسأل :
 - ونحن ما الذى سنعمله ؟ نحن أناس اقرب الى القافلة ، فلعل
 من الاحسان اليها أن يصار بنا الى الزوال . .
 قال شول منكراً :
 - هؤلاء الناس لا يشبهون أحدا .
 وتساب تشاؤماً طويلاً ، ثم عاد وجهه فصار من حجر ، وجملات
 عيناه فكانهما من زجاج .

غضب عكاشة :

- اننا لا نعرف شيئاً عما عانوا ، ولعلنا لن نعرف عن ذلك شيئاً في يوم من الأيام . انهم يتوافدون من اراض أصابتها اللعنة . عاد شول يقول في تشاقل :

- انظروا كيف يختالون في المدينة ، وينامون اينما اتفق ، ويزحمون الشوارع .

- كان أوربيا هو الذي يقول هذا الكلام !

- لماذا ؟ أى خسر في أن تقول هذا الكلام ؟ اعترف انهم قد ألفوا ان يعيشوا كما تعيش البهائم . والاوربيون حين ظهروا منهم المدينة عدة مرات لم يفعلوا الا ما كان يجب ان يفعل . غير أن أصحابنا هؤلاء جنس من البشر لا يقدر عليهم شيء ولا يقدر عليهم أحد . لا يقدر عليهم الا الذي خلقهم .

ثم اضاف شول بعد لحظة من تفكير يقول :

- انى لاتساءل ما الذى كان يمكن أن نصير اليه لولا أن عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رؤوسنا . انى لالقي على نفسى هذا السؤال حقاً . . . لولا هذه العصا ، لاكل بعضنا بعضاً ، ما فى ذلك ريب !

قال ذلك ، وسغل ينظف حلقه ، ويصق ، واطاف :

- اننا شر من الذئاب . .

فما كان من حمدوش الا أن رشقه بالفاظ فاحشة ، وقال :

- ليس مؤكداً أن لك تحت سروالك ما يبرهن على أنك رجل .

فرد شول بحركة بذئنة ، فضج عدد من العمال يضحكون ضحكا ساخبا بينما أخذ آخرون يدمدمون مثدمرين .

فكر عمر في جميع أولئك المتسولين الذين يطوفون بالمدينة ، بؤساء في عزلتهم هذا البؤس كله . فهدرت في نفسه حركة من تمرد وحنق على رفاقه في المصنع . انه قد انصفه بقضته هذه الوجوه التى تكسر ساخرة في عتمة الكهف . وأحس بظلم شديد إلى الهواء الطلق . واستمر الحائكون ينقض بعضهم على بعض وهم يوشكون أن يتناهشوا

تناهش الكلاب المسعورة .

قال الامين متمما في لحيته :

- يجب أن يعيش بعضنا لبعض ، فيكلأنا الله بعنايته .

وازداد وجه عكاشة اظلاما ، ثم لم يحفل بالحديث الذي يدور . كان صوته في الكلمات الاخيرة التي نطق بها ، قد تحجب فجأة حتى لكان الكلام لا يسمعه . وقام بحركة يابسة عصبية . وكان عمر يراقب عينيه وهما تتقدان قاسيتين .

قال مولاي بو أنور ين بصوته التحيل الرتيب :

- علام المناقشة في هذه الامور ؟

ثم أخذ يسعل ، وصعدت الدموع الى عينيه ، وأخذت تتدحرج على وجهه الذي يشبه ان يكون من شحم زنج ، دون أن يبدو عليه أنه يشعر بذلك .

قال حمدوش وهو يهز رأسه :

- اسمع . اننا نتناقش في هذه الامور لاننا .. في أي امر آخر

تريد أن نتحدث ؟

وصمت . ثم نظر الى مولاي بو أنور نظرة ليست معهودة فيه ، لقد كان في هذه المرة جادا واجما .

ازداد سعال مولاي عنادا . كان الحائك قد بلغ من انحنائه على نوله ان رأسه يلامس الاسطوانة .

قال له الاحمر في رفق :

- حقا ! الا انك لعاقل حكيم . . علام تتحدث في هذه الامور ؟

- حين كنت في مثل سلك ...
قال عكاشة هذا ولم يزد . ثم ربت على كتف عمر وقال :
- آه ... دعنا من هذا .
هذه أول مرة يحيى فيها عمر الى هذا المقهى . كان سروره بوجوده
في هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة .
ان عمر صامت ينظر فيما حوله ، وهو يشم رائحة الماء الرطبة في
قادوس عفن . كان ينتظر ما سيقوله عكاشه . ولكن عكاشه يسأله :
- قهوة أم شاي ؟
فتردد الصبي ثم اجاب :
- شاي ؟
فصاح عكاشة :
- واحد قهوة ، وواحد شاي ، يا معلم .
كان صاحب المقهى يعمل وراء بسطة صغيرة ، في ظل تتلأأ فيه
أواني الخزف البيضاء ذات الازهار الزرقاء ، المصفوفة في « الوجاق »
فلم يقل شيئاً ، ولكنه سرعان ما أخذ يتناول من بين أدواته ما هو في
حاجة اليه .
كان عكاشه جالسا قبالة عمر ، مديرا ظهره للشارع . ولم يكن في
المقهى كثير من الناس .
جاء المعلم بالقهوة والشاي .
ان الجدران المتدخنة الحالكة السوداء تلمق في القاعة ظلا مريحا .
وكان الزبائن الاخر لا يتبادلون الا كلمات قليلة من حين الى حين .
وبينما كان عمر يحدق الى الازدحام الساطع في الشارع ، تناول قدح
الشاي المحرق الذي تطفو على سطحه خصلة من نبات النعناع ، فحمله
الى شففيه ورشف من السائل الذهبي اللون رشقة طويلة .
تنهد عكاشه ، ثم ابتسم وقال :
- أنا قلق ...
فأعاد عمر قدحه الى المنضدة .
وتابع عكاشه يقول :

— اننى لم اكن هادئا من قبل ، فكيف وهؤلاء الناس يملأون المدينة الآن .

— أوه ... لا خوف منهم .

طفل .

واخذ عكاشة يضحك ، لكنه لم يلبث أن عاد الى عبوسه .

— اننى لم اكن هادئا من قبل ، غير اننى منذ رايت هؤلاء الناس

أصبحت احس بحمل ثقيل يحتم على كفى ...

لم يتكلم عمر ، وقد ازعجه انه اساء فهم معنى الكلمات التى قالها

صديقه

وصمت عكاشة ايضا . وسمعا ، خلال هذه البرهة القصيرة من

السكوت ، الكلمات المتباعدة السريعة التى كان يتبادلها جيرانهما من

حين الى حين . قال عكاشة :

— لقد ازداد قلقي .

وطاف ببصره على الجدران القائمة ، وتأمل « الوجاق » الذى يشبه

أن يكون ضريبا صغيرا مزينا يشع بياضه فى عتمة المقهى الفقير ،

وحدق الى المفلاة العالية الموضوعة عليه ، ونظر الى صاحب المقهى الذى

كان قدامه ، ثم تطلع الى عمر فقال له أنه يحس أن شيئا جديدا قد نبت

فى نفسه . وسأله :

— أنت مؤمن بالله ؟

فتلعثم الصبي وقال :

— أنا ...

وتفرس فى وجه صاحبه ، ثم اضاف :

— لا أدري ...

وكان رجل قصر ذو لحية قوية يجلس على مقربة منهما ، فضحك

ضحكة متخفية لم يلبث أن نقلها الى سائر الزبائن ، فالتفت عمر

وعكاشة الى وراء بحركة واحدة لينظرا اليه . سأل عكاشة صاحبه :

— اصحيح حقا أنك لا تعرف ؟

قال ذلك وعيناه تتاملان الفراغ . فلم يجب عمر بشئ .

فخفض عكاشة رأسه ، وليث صامتا لا يتكلم .

ان الفتى ينظر تلقا ، من فوق كتف رفيقه ، الى الشارع الملىء

بالضياء والحركة والضجة .

قال عكاشة :

— يخيل الى اننى أصبحت غير مرتاح الضمير .

قال ذلك بصوت مخنق ، ثم رفع عينيه ينظر الى عمر ، و اضاف
صوت عال :

— أوه ... لست آخذ على نفسي شيئا بعينه .

ثم دمدم :

— وإنما اتكلم بوجه عام .

وتابع يقول :

— ليس يكفي المرء بعد الآن ان يكون مؤمنا حتى يرتاح ضميره .

طبعاً .. أنا أتمنى لو كان إيماني مصحوباً براحة في ضميري . ولكنني
مؤمن وغير مرتاح الضمير .

وفجأة صاح بعنف مكظوم خفق له قلب عمر :

— لكنني لم يبق لي في هذه الحياة شيء أعمله . يمينا ان هذا هو

عاشع به .

قال ذلك وهو يفرز في عمر نظراته السود المتقدة .

— نعم .

احس عمر بأنه تعيس . واخذ عكاشة بضحك ضحكا خافيا .

ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك ، وغرقا في ذلك الصمت الذي يفرق

فيه رواد هذا المكان ، اذ يظلون ساعات طويلة جنباً الى جنب دون
ان يتبادلوا كلمة واحدة .

وخرجوا بعد قليل . الناس يسرون في الضوء الازغب ، وكان شمس

الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمة . ان عمر لا يزال يفكر في

أقوال عكاشة . ان ما لهذا الحائك من حركات هادئة ومزاج معتدل ،

على تحفظ ، بيت الطمأنينة في النفس . ان المرء لا يستطيع الا ان يتأثر

بهدهوء عكاشة ، خاصة اذا كان يعرف ذلك الطبع الغريب الذي يتصف

به الاحمر مثلاً . كان عمر يشعر بأن لعكاشة مزاجاً يفيض بالعاطفة

حقاً . ومع ذلك لم يستطيع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك الاضطراب

الذي أيقظته فيه أحاديث عكاشة .

وفيما كانا يسيران اتجه من سبل المارة شيخ ذو وجه غريض

متحجب ، يرتدي أسمالاً رثة ، ويتلمس الطريق أمامه بعضاً طويلة .

انه يقضم أثناء سيره كسرة من الخبز ، ويصيح بصوته القوي من حين

الى حين :

— حسنة يا اخوان ، حسنة للأعمى المسكين .

ان عينيه الميتتين تحت جفنين احمرين منتفخين تبدو أن حانقتين .

انك تقرأ آيات شقاء بهيمي على وجهه المتغضن الذى تجتاحه حبيسة
كثيفة قدرة ملطخة باللعب .

كاد عكاشة يصطدم به دون ان يراه لولا انه تلقى العصا بين ساقيه ،
فأخذ عندئذ بيده ، وردده الى طريقه .

وعند « باب بومدين » كان هنالك حشد كبير من الناس يتكسبون .
فهذه نساء وبنات صغيرات يمتدحن أرغفة خبز الشعير التى يحملنها
للبيع . وهؤلاء رجال من تجار الامتعة العتيقة قد فرشوا على الارض
أنواعا لا حصر لها من الاطمار القديمة . وهؤلاء قصاصون قد تحلق
حولهم العاطلون ، فهم يحكون لهم بصوتهم الصادر من اسفل الحلق
كصوت اهل الجنوب ، سير ابطال الزمان القديم . وهؤلاء باعة متخفون
متعجلون خائفون يتسللون بين حشود الناس ، ويفمزون المارة عارضين
عليهم سلعا من السلع التى لا يجوز الاتجار بها : سكر ، صابون ،
زيت ، دقيق ...

ان سوقا سوداء قد قامت فى هذا المكان فى ايام التقنين هذه .
قوراء هذا العالم الذى يغلى ويفور ، وراء هذا العالم الذى لا يخفى
بؤسه ولا يحفل به ، انما كان رجال الشرطة ، الذين ينتمون الى عالم
آخر ، الى العالم الذى يهدد ويتوعد ، يسودون ويحكمون ، كآلهة
لا سبيل اليها وليست اشخاصا بأعينها .

هكذا تجول عمر وعكاشة فى الشوارع خلال فترة من الوقت ثم
افترقا .

كانوا يأكلون ، فبعض يأكل خبزا و قليلا من مصالة اللبن ، وبعض يأكل خبزا و قليلا من الزيتون ، وبعض يأكل مع الخبز بطاطس طبخت بكثير من الماء وفطرة من زيت . انهم يمضفون طعامهم صامتين . وفوق رؤوسهم تتدلى شباك طويلة من شباك العنكبوت وهي تتأرجح متراخية كسلى . وعلى الأرض غطاء أبيض من غبار يرمونه ببصقاتهم من حين الى حين . والغبار نفسه يتشبع بجميع الاشياء سبائخ دقيقة ناعمة ، فهو يغطي أخشاب الانوال والجدران الخشنة وأسلاك الكهرباء والحبل المشور من أول المصنع الى آخره .

وانتهى حمدوش من التهام طعامه أول المنتهين ، على عادته في السرعة المحتاجة . حتى اذا مسيح فمه بظهر إحدى يديه ، اتجه بالكلام الى عكاشة يسأله بلهجة ملتبسة :

- قل لى ، هل صحيح أنك انخرطت يوما فى السياسة ، ثم عضضت أصابعك ندما على ما فعلت ؟

- السياسة ؟ جميع الناس يعملون فى السياسة .

لقى عكاشة نظرة هادئة على حمدوش دون أن ينقطع عن تحريك فكيه ، فاستاء الأحمر وعاد يقول :

- لست أفهم ما تريد أن تقوله . أنا مثلا أهتم بعملى ولا اكترث بشيء عدا .

- وانت تعمل فى السياسة أيضا .

وفى أثناء ذلك انطلق شول يضحك ساخرا من هذه التصريحات التي أدلى بها حمدوش ، ذلك ان حمدوش هو بين سائر العمال أقلهم مواظبة على العمل واستمرارا فيه . كان لا يكاد يعمل فى مصنع حتى يهجره الى غيره ، وبذلك طاف المدينة كلها من أقصاها الى أقصاها .

- غريب . وهل حين أذهب الى زازا أعمل فى السياسة ؟

قال حمدوش ذلك وأخذ يقهقه قهقهة عالية من شدة فرحه بمزحته الموفقة . وزازا هذه مؤسس من الاحياء الدنيا ، هى أثيرة قلبه .

كان الآخرون صامتين لا يتكلمون وفى أعلى ، من خلال زجاج النافذة العالية ، كانت ترى أطياف مارة يسيمرون غارقين فى ضوء أغبر .

وكانت جلبية الشارع تصل الى الكهف ، غير أنها تصل اليه ضعيفة
لا تفهم .

— المفتش نفناف ...

قال مصطفى رزاق ذلك ، وانقطع عن الكلام وتمطى طويلا ، ثم تابع
يقول :

— المفتش نفناف ، قال لي وهو يخرجني ذات يوم من باب السجن :
« ألا تستحي أن تقضى حياتك كلها في السكر ؟ يجب أن تعود الى
رشدك » فأجبتة بقولي : « لقد ظلت طوال حياتي أعمل فرايتني بعد
ذلك العمل واقفا حيث أنا لا اتقدم الى امام خطوة واحدة . لذلك
قررت ألا أعمل الا من اجل أن أكسب ما أدفعه ثمن الخمر » فقال
لي وهو يدفعني الى خارج السجن : « لسوف تفتس من ذلك » ،
فوددت لو أجيبه قائلا : « أنا أسكر فأسلو ، أما انت ، يا غبي ، فما
سبيلك الى السلوان ؟ أهو تعذيبك لاختوك البشر ؟ »

واجال مصطفى رزاق نظراته الحاملة في المصنع . ان وجهه طويل
نحيل . وأضاف يقول :

— ما الفائدة من الحياة ؟ لا فائدة منها . . لذلك أشرب ، وأنا اثناء
السكر ، انسى حماقة البشر .

قال حمزة :

— ليس هذا بالكيد .

فلم يحبه الآخر ، ولكنه رفع قبضة يده وهوى بها على أحد الأنوال .
— جائز .

قال شول مازحا :

— عدا هذا ، أنت مسرف في حب الشراب .

فتنهذ رزاق ، ومال برأسه ذات اليمين وذات الشمال كمن في
صدره كلام كثير يطول شرحه .

كان حمدوش جالسا على إحدى درجات السلم ، منزويا ، عاقدا
يديه على ركبتيه ، يصغي الى الاصوات المبهمة التي تقوم في الشارع
الصغير . ان وجهه الجميل متناسب القسمات يعبر الآن عن استغراق
في التفكير . شفتاه ممطوطتان ، وقيصمه الأزرق ينحسر عن صدر
تنتشر عليه شعرات شقر . قال مدمدما :

— هذا كله ليس له كبير قيمة .

— زازا وحدها هي التي لها قيمة في رايك .

قال شول ذلك وتفلطح فمه الذي لا أسنان له ، فتناوب ، ثم أردف

ينق :

— انتما متلازمان ...

حين سمع الاحمر اسم صاحبه حملت عيناه . واقترب حمزة من عكاشة فسأله بلهجة الاسرار :

— هل سجنيت ، انت ؟

فلم يجبه عكاشة .

صاح حمدوش :

— السياسة ، ما السياسة ؟

فارتفع صوت حمزة يهتف :

— يا جزائر ، يا جزائر ، أين رجالك ؟ من ذا الذي سيقظهم

من سباتهم ؟ لقد اشتدت كروب الشعب ، لقد اتسعت كروب الشعب .

فصرخ حمدوش صرخة كبيرة انتفض لها المصنع كله ، ثم تظاهر بأنه يبكي بكاء متقطعا :

هي هي هي ...

تابع حمزة :

— السياسة شيء معقد يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة به .

فبعض يقول : يجب اعطاء الاراضي للفلاحين . وبعض يقترح : « اعطونا كل شيء ونحن نوزع على ابناء الشعب بالعدل » .

وهكذا ترى ان السياسة تعنى برخاء بنى البشر .

قال الاحمر :

— طيب ... ولكن نحن ... نحن الحائكين ؟

— نحن ؟ نحن زبالة .

فألقي حمدوش نظرة احتقار على حمزة ، وأشاح بوجهه عنه .

قال مدعما :

— من حكم عليه بالاشغال الشاقة ، وخاصة من حكم عليه بالاشغال

الشاقة منذ قديم ، ليس الاحمارا ببردعة .

وكان قوطى الامين معتزلا فى ركنه من المصنع يتدتم على عادته .

انه يحرك شفتيه كثيرا ، دون أن يرفع صوته ، كأنما هو يستعرض افكاره ثم يستعرضها الى غير نهاية .

وحين فرغ عمر من تناول طعامه ، مضى يلتحق بالصبيين الآخرين

الذين ابتعدا الى آخر المصنع ، وجعلا يرشقان شفاغ القصب فى الهواء ثم يستقبلانها على ظهر اليد وهما يتصايحان .

قال صاحب المطعم :
أخذ النهار يطول . . وفكر لحظة ثم أضاف :
- لقد لقي هتلر من يقف في وجهه في الشرق .
وصمت . ولكنه ، كمن لم يفصح عن كل ما في ذهنه ، استأنف
كلامه :

- سوف يعلمه الروس كيف يعرض التراب ، هذا لا شك فيه .
فهز عكاشة رأسه هذا خفيفا لا يكاد يرى .
كان المعلم واقفا وراء بسطته المحملة بأطعمة بائنة . وكان عكاشة
مستندا بكوعيه الى إحدى الموائد الطويلة في المطعم الفقير ، يتأمل
كأس الشاي الموضوع أمامه ، الذي تنقع فيه أوراق الأيسنت ، وقد
وضع يده على خده ، وراح ينشق من سيجارته أنفاسا مطردة .

إن عمر يحس بهذا الزمان الذي يجري أحاساسا يشبه أن يكون
جسيما . وكان في المطعم رجل آخر فلاح يدل مظهره على أنه حمال
وشابان في نحو الثامنة عشرة أو العشرين من عمرهما ، غاريا الرأسين
يرتديان ملابس الزى الأوروبي . إن الجلبة التي يحدثها زبائن المقهى
تختنق في هذا الجو الذي يتضج دهنا ، والذي أصبحت رائحة الطعام
الكريهة جزءا من هوائه وموائده الحسنة الحربة وأرضه السوداء ومقاعد
المهترئة . والقاعة يعوزها النور ، فضوء النهار ينخله زجاج بابها
فما يصل إليها إلا كاييا . ومن ضجة الشارع لا يبلغها إلا اهتزاز خائت

بعد أن قال المعلم تلك الكلمات رفع مغلاة الشاي التي يضعها دائما
قرب الموقد وملأ منها قدحا الى آخره ، ثم جاء فوضع الشاي أمام
الصبي دون أن يقول شيئا ، ورفض الصبي باقة الأيسنت التي مدها
إليه ، لأن صدره ينقبض لرائحة هذا النبات ، فما ألح المعلم . .

كان عمر يدرك أن عكاشة قد سر بمجيئه . إن هذا الحائك يجيء
الى هذا المكان في جميع أيام الأحد . أنه والمعلم صديقان قديمان ،
وهما كلاهما يحبان التأمل ويحبان الشاي بالأيسنت .
وفي هذه اللحظة ، انفتح الباب ، فما كان أشد دهشة عمر حين
راى حمزة يدخل ويقتل عليهما مبتسما .

— هيه . . جئت الحق بالرفاق .
قال حمزة ذلك ودار حول المائدة فجلس قرب عكاشة .
ان كل حديث مع عكاشة أصبح الآن مستحيلا .
التفت عمر نحو الصالة ، ورصد الشابين اللذين يرتديان ملابس
على الزى الاوروبى . انهما جالسان فى وسط المطعم .
وكان حمزة يتكلم ، فاذا هو يمسك عن الكلام فى منتصف جملة ،
ويتم قائلًا :

— لنمسك عن الهذر .

وسأله عكاشة :

لماذا ؟

— لا لشيء .

ولم يقل السجين السابق بعد ذلك شيئًا .

فقال عكاشة دهشًا :

— أنحن خائفون إذن ؟ يمينا انه ليكفى أن نتحرك قليلا ، حتى

يوسخروا سراويلهم

فهز حمزة رأسه .

— يلقون اليكم بعظمة ، فاذا انتم تعودون الى الطاعة والرضوخ ،

كالكلاب . لقد علموكم كيف تخضعون

كان يتحدث بثقة هادئة تضيف على كلامه ثقلا كثقل البداهة .

وابتسم عكاشة ابتسامة مقهورة ، وخفض رأسه . قال مدمما

وقد أخذت يداه ترتعشان :

— لقد علمونا ان نخضع . . ولكن يجب ألا يركنوا الى هذا

كثيرا .

فرفع حمزة كتفيه . فرشقه عكاشة بنظراته السوداء ، ثم القى

على القاعة نظرات سريعة . وظهرت تلك الابتسامة المقهورة مرة أخرى

فى شفطيه اللتين انعقتا قليلا فى أدغال لحيته . ان حركاته تنم عن

عذاب وغم فى نفسه .

دمدم السجين القديم :

— اذا كان الناس كما تراهم فليس اللئيب فى ذلك ذنبهم .

وكان عمر لا يزال يرصد الشابين وقد ثار حب الاطلاع فى نفسه .

انهما يجلسان متبحرين ، على كرسيين عتيقين غاص قشهما ،

وقد باعدا بين ساقيهما مبانعة كبيرة ، فليس يتفق وضعهما كثيرا مع

ما فى هذا المكان من شظف . وفجأة اظهرا علامات الانزعاج والتعلمل ،

كأنهما عما يدهشان من وجودهما في هذا المكان : ان أحد أصحابهما قد دخل في هذه اللحظة . ولكن هذا ، بعد أن القى السلام على الناس بصوت عال : « السلام عليكم » ، وبعد ان سأل ، وهو لا يزال عند الباب ، هل في المطعم حرية (١) ، مضى يجلس الى مائدة في الركن دون ان يحفل بهما . عرف عمر الشاب الداخل الذي أشار له بيده يحييه . انه جمال طراز ، ابن حقيقى لأسرة من « كبار الأسر » ، فتى يشد إبليس من ذيله .

سمع عمر حمزة يقول في هذه اللحظة :

— هكذا ..

وسقطت نظرة الحائك الشاحبة على الرجل ، فتأمله الرجل خلال بضع ثوان في انتباه ، إلا ان فكره كان يطوف في غير ذلك . ان ابتسامة داهية تمحو الآن دمامة وجهة الكثيف . تفرس عكاشة في حمزة من تحت حاجبيه الضخمين . كانت نظرتة قاسية ، وكانت ابتسامته قد اختفت .

تابع حمزة يقول :

— لاشك ان جماعتنا عبيد ، اذ لا شيء في هذه القيود التي توثقهم يفيدهم ، وهم يتحملونها مع ذلك .

قال هذه الكلمات بصوت خافت لكنه واضح . ولم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك القلق الفريزى الذى أيقظه فيه هذا الرجل ذو الجمجمة المفرطحة .

(١) حساء يصنع من الخميرة

ثمة شيء في القاعة كان قد تغير . ان عمر يراقب الشابين المختالين اللذين دهننا شعرهما بالزيت . لقد امر كل منهما لنفسه بسجقتين صغيرتين مع الفلفل الاحمر داخل قطعة من الخبز ، فهما ينشجان في السجق أسنانهما ، ويزدردانه بشهية نهمة ، وما هي الا لحظة حتى اجهزا على الطعام ، فنهضا عن مكانيهما بحركة واحدة دون ان ينسبا بكلمة ، ومضيا بدفعان ثمن ما اكلاه بضع قطع من النقود وضعاها على البسطة الضيقة المزدحمة ببيض مسلوق وأسياخ كبدة نبيء وسمك مقلي بارد وخبز مقسم قطعاً .

لاحظ عمر في هذه اللحظة ان وجودهما كان ثقيلًا على صدور جميع من كانوا بالمطعم ، فما ان خرجا حتى أحس الناس ان الهواء قد خف .

وحين جاء المعلم الى جمال طراز بحسائه تلبث عنده قليلا وسأله :

- مع ليمون ؟

فأجاب جمال طراز :

- لا .

- قطعة خبز ؟

- لا .

فعاد صاحب المطعم الى مكانه وراء بسطته ذات المدخل المقدود فيها . وكان بالجدار وراء البسطة كوة جعلت خزانة ونضدت فيها رفوف ، فوضع المعلم صحنًا على أحد الرفوف العالية علو قامته ، وأدار ظهره للقاعة وجعل يأكل .

وأمام مدخل المطعم كان الخادم ، وهو فتى نحيف شديد البياض صاحب الوجه ، كان واقفا يهوى الموقد الموضوع في كوة فوقها مدخنة . ان أسياخ الكبدة الملقوفة بشحم الخروف ، المصفوفة على مشواة ، تصدر دخانًا كثيرًا يملأ القاعة برائحة حادة من رائحة احتراق الدهن .

وفي هذه الأثناء كان حمزة يتكلم بلهجة واحدة لا يرفعها أبدا . فقيما كان عكاشة يشعل سيجارة جديدة ، قال السجين القديم

بسرعة وهو يلعب بلحيته ذات الشعر المنقلب :
- يتفق لى أحيانا كثيرة ان اتساءل عن أنفسنا ما نحن ؟ نعم ؟
ما نحن ؟ هل لك ان تقول لى ما نحن يا صاحبي ؟
فقال عكاشة ساهما :

- ما نحن ؟

وألقي عليه محدثه نظرة مأكرة ، وقال :

- نعم ، ما نحن .. هل تستطيع ان تقول لى ما نحن ؟

- الامر بسيط كل البساطة . اتنا لا نعرف ما نحن . ولعلنا فى
هذا العالم المخلوقات الوحيدة التى لا تعرف ما هى ، ولا الى أين هى
سائرة . لو سألت آية بهيمة ، لعرفت كيف تفهمك ماتريده ، أما نحن ..
وقبل ان ينهى الرجل جملته ارتفع صوت السجين القديم يسأل :
- أيها الانسان ، من أنت ؟

كان لا يزال يجلس ثم يخلط كسث لحيته بأصابعه الضخمة الثقيلة
القصيرة وكان قد خلع طربوشه الاحمر ووضعها على المقعد قربه .
وظل يعذب لحيته مدة طويلة على هذا النحو ، ودمدم أخيرا يقول :
- أين أنتم يا رجال الحق ؟

قال عكاشة وهو يحرك أصابعه نافذ الصبر :

- فلننظر فى هذا الامر .

- يظهر أنك اختفيت من المدينة منذ بضعة اعوام لانك نظرت فى
بعض الامور عن كسب .
فهر عكاشة كتفيه :

قال حمزة :

- فى رأيك ، ما الذى يحدث اذن فى بلادنا ؟

ولكنه فى هذه اللحظة نفسها نسي سؤاله وهمس فى اذن عكاشة

- انظر الى ما يجرى فى القاعة ...

فاستدار عمر على مقعده فى رفق بنظر هو أيضا . كان الصبي
الذى يعمل « مساعدا » للطباخ يشتر مع الزبون الذى تدل هيئته
على أنه حمال . قال له :

- اتنا بما تساوى قيمته ثلاثة « دوروات » أيضا .

كان هذا الرجل ، الذى لا يراه عمر الا من ظهره ، يقحط بملعقته
فى عناية طبق القصدير الذى يأكل منه ، ثم تناول الطاسة بين جوفى
يديه ، وشرب السؤر الذى كان فيها ، ولم يلق على مساعد الطباخ .

من فوق كتفيه ، نظرة ضاحكة الا بعد أن فرغ من ذلك كله .
وصاح المعلم يقول له ، وقد اخبأ نصفه وراء البسطة :
- ائتنا أيضا بما تساوى قيمته ثلاثة « دوروات » فنقتسمه بحيث
يصيب كل منا ما قيمته « دورو » واحد .
فضحك الزبون ضحكة خالصة ، وكان قد فرغ من طعامه ونهض ،
فقال :

- اذن تريدون مزيدا ؟ بثلاثة « دوروات » ؟
وعاد يضحك دون أن يتخلي مع ذلك عن شيء من التحفظ . واتضح
حين قام انه رجل طويل القامة جدا ، وانه كذلك ذو أنف أفنى وان
وجهه وجه طفل . كان يمس رقبتيه ويضحك فى سداجة .

- نعم ، وسنقتسمه فيكون لكل واحد ما قيمته « دورو » .
قال المعلم ذلك ثم لم يستطع أن يحبس ضحكه ، فأخذ يقهقه
قهقهة مختلفة وفى صوته دموع . وأخذ الصبي يضحك امام موقده
بصوت حاد ، وجعل الرجل الذى تشبه هيئته هيئة الحمالين - اتراه
كان حمالا ؟ - يضحك كذلك بصوت تخين . وكانت ضحكتهم جميعا
ضحكة رضا وتواطؤ .

نظر حمزة الى عكاشة ثم نظر الى عمر ، وقال وهو يتسم أيضا :
ما اكثر ما يبدو فى هؤلاء الناس من تفاههم وسرور ! فهل
تظن انهم فى سلام مع انفسهم ؟ من ذا الذى يستطيع ان يعرف شيئا
عما يختفى وراء هذا السلام الظاهر ؟

ان عمر يريد فى هذه اللحظة ان يخرج . نظر الى الشارع من خلال
الزجاج . لا خوف ان تهطل الامطار قبل هبوط الليل . لقد انقضى
من الاصيل شطر كبير . ان عمر اصبح لا يستطيع ان يتنفس ، كأن
الهواء لا يدخل رئتيه .

صف الحمال على البسطة عدة قطع من النقود ، وهو يعض عينييه
فى مكر . فنهض المعلم ممثلى الفم بالطعام ، فلم قطع النقد ثم رد
واحدة منها الى يد الزبون .

قال الزبون :

- ماذا ؟ هل أعطيتك زيادة ؟
وتقلصت جرزة عنقه ، النائة ، الضخمة ، وسمعت ضحكته
الخارجة من الجوف ، مرة أخرى .
قال له صاحب المطعم من خلال الطعام الذى يربك فمه :

— بل احتفظ بهذه ، لتشرب بها قهوة على حسابي .
وضحك وهو يحاول أن يحبس الطعام الذي في فمه .
فلما اجتاز الزبون باب المطعم ، صاح المعلم يقول له مرة أخرى :
— سنقتسم ، لكل واحد « دورو » ...
واستطاع أخيراً أن يضحك من كل قلبه ، بعد أن بلع ما كان في
فمه .
انتهز عمر هذه الفرصة ، فترك الحائكين . هو الآن في الشارع .
وحيد ، حر .. لكان الهواء قد غفا ، فهو ناعم هاديء ، والمدينة
تستريح في ضياء قائم عجيب .

غمامات رقيقة ندفتها ربح الصباح ، تجرى فى السماء الزرقاء الشاحبة جريا سريعا . أحس عمر أنه خفيف ، كريشة . فلما وصل الى الكهف علم ان زيش مات . لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله فى المصنع . صعد عمر . ان زيش قد انقطع عن المجيء منذ أيام ، فلم يكثر أحد لغيابه . وكان عمر لا يؤمن بالموت ، مع أنه شيع عددا من الناس الى مثواهم الاخير . . . عددا أكبر من أن يحصيه . أما أن يحدث ذلك على مقربة منه : فهذا ما يدهشه كل الدهشة . انه لا يفهمه . وتراءت له قامة زيش النحيلة تنهض امام عينيه . رأى الوجه الصغير الشاحب الذى يفضنه التكشير ، وخيل اليه أنه يسمع مرة أخرى تلك الحكايات الفظيعة التى كان يقصها هذا الصبي الأشود . تذكر كيف كان الفتى يخيف نفسه بنفسه ، كيف كان ينظر الى ما حوله فى اشتباه ، ويخفض صوته ، ويضع أصبعه على فمه قائلا : هس .

كان يهمس باللفظ ، فكان كلامه آت من بعيد ، من الضفة الاخرى ، من العالم الآخر . . . لكن كلامه صدى غائم لعالم يختبئ وراء ستار عميق .

قال شول :

- ... نعم ... ألم يكن موته خيرا له ؟ لقد ارتاح .

خرج عمر فجأة من أحلامه ، انطلقا فى سمعه الصوت الصغير ، صوت الصبي الذى مات .
ودمدم الامين يقول :

- ولدوه ، فعاش ، ولعب ، وتحرك فى الحياة ما شاء له هواه ان يتحرك . ثم ماذا ، هاهو ذا قد مات . . . وكأنه لم يكن . .
واضاف الامين :

- يا أيها الناس الذين لا تحفلون الا بهذه الحياة الدنيا ، ماعساكم فاعلين بين يدي الله ؟ .. يا ويلكم من الله !
قال دلو :

- الشقاء ؟ خلقنا له وخلق لنا .

فحرك الأمين شفقيه يريد أن يجيبه ، واهتز شعر شاربه ولحيته ،
إلا أنه لم ينطق بحرف .

قال بأصغالي محتجا على هذا الحديث ، وفي عينيه دعر شبحوخة
خائفة :

— مات ، الله يرحمه . مالنا ولتكرار هذا الحديث في غير انقطاع !
تذكر عمر الجدة وبنيت العم الصغيرة ، إذن لقد مضى الصبي
الفكه يدركهما في عالم الاموات . لا حيلة للمرء في رد هذا القضاء .
انقبض قلب عمر .

وبعد بضع لحظات جاء ماحي بوعثان ، وقد أبلغ النبا ، جاء الى
المصنع من أجل أن يصحبه عمر الى منزل أم زبيش .
فما رأى عمر البيت من بعيد حتى أصاح بسمعه ، أن ولولات حادة
ترتفع عند آخر الشارع الضيق . والصوت ينتقل من الالم الى
الدهشة ، ومن الدهشة الى أقوى تعبير عن اليأس . وفجأة توقف
الصياح ، وخيم الصمت .

دخل الصبي ليبلغ أهل البيت أن المعلم جاء . ولبت بوعثان ينتظر
امام الباب . ولكن ما أن وضع الفتى قدميه في البيت حتى استقبلته
ولولات جديدة . هي بكاء لا سبيل الى حبسه ، بكاء بصوت أبج لم
يلبت عمر أن عرف فيه صوت عائشة ، أم زبيش . اشتدت رهبة
الصبي .

كانت عائشة جالسة وسط عدد من النساء تحلقن في الفناء تحت
الرواق ، وقد أخذت تلطم صدرها وذراعيها ووجهها وهي تنتحب .
كانت الدموع تسيل على خديها المخدشين ، وعيناها السودران
ترسلان نظرات كنظرات بهيمة مروعة ، والزبد يرغى على حواف
شفتيها . ظل عمر ينظر اليها ناسيا المهمة التي جاء من أجلها ، وينظر
الى هؤلاء النساء اللاتي ييكنن معها . ولكن عائشة عرفتة ، فتأملته
لحظة وهي ترتعش ارتعاشا شديدا ، وقد أفلتت غداثر شعرها من
المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيرا أن يقترب ، فمضى
اليها متسللا بين جمهرة النساء وهمس في أذنها أن المعلم واقف على
الباب يريد أن يراها . فنهضت على الفور وردت غداثرها الى ماتحت
المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيرا أن يقترب ، فمضى
النساء تثرثر .

فلما عادت يتبعها ماحي بوعثان وعمر طلبت الى النساء أن يختبئن .
فهرعن جميعا الى الغرف المجاورة ، إلا العجائز منهن ، فقد اكتفين

باسدال الحجاب على وجوههن ولبش في أماكنهن . دخل الرجل
والصبي وعائشة الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، التي يتمدد في وسطها
كفن مسجى لاح للصبي طويلا مفرطا في الطول ، فتحير الصبي ودهش .
لكن الموت قد مط ذلك الصبي الصغير فجعل منه الرجل الذي لن
يكونه .

جثا ماحي بوحنان على كعبيه امام جثمان الميت صامتا ، وأخذت
شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هي الا لحظة حتى اخذت الدموع تتساقط
من عينيه . وكانت الام واقفة تراقبه وقد شبكت يديها على بطنها ،
وجفت وجهها وجفت عيناها . واقتربت النساء ترصد المشهد من عتبة
الباب . فقام بوحنان في عناء وهو يتنفس تنفسا قصيرا ، فهربت
النساء مرة أخرى مروعات . وفي هذه اللحظة رأى الصبي المعلم يضع
في يد عائشة شيئا ما ، فاذا بالمرأة القصيرة الرثة تأخذ تكيل له الشكر
في اضطراب ومذلة ، ثم اذا هي تنفجر باكينة مثتجة على حين فجأة .
وخرج ماحي بوحنان وعمر ، وعادت ولولات الحداد .
قال بوحنان بصوت خافت في الشارع :
- مات ... طيب ... ماذا نعمل ؟



لبث عمر بضعة أيام في حالة من الاضطراب . كان يذهب وينجيء
ويقوم بألف عمل وعمل ويجرى في الشوارع الفارقة في جو الربيع ،
وهو شارد اللب ذاهل . ومع ذلك كان شعور غامض بالسعادة يغزو
قلبه على غير علم منه ، ويوقظ فيه أصداء خفية عذبة لا يدرك الصبي
كنها ولا يستطيع الافصاح عنها .

غير ان الجو لم يلبث ان اجتاحه البرد على خلاف كل ما كان ينتظر
وعادت تغطي سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقلا . وأخذت
تهطل أمطارا رقيقة بغير انقطاع فتلف بغاليتها المباني والخضرة التي
بدأت تنبت على أغصان الأشجار ، وأطياف المارة . ان جداول صغيرة
تتواهب على ارض الشارع ، ثم تجرى بسرعة الى افواه البلايع .
وعادت المدينة تغرق في أفكارها السود . وكثر جمهور المتسولين كثرة
لا عهد بمثلها من قبل .

هذه الوجوه المغلقة ، هذه الاعين التي لا تنظر الى أحد ، أترأها تعلن
عن قيام عهد جديد ؟ هؤلاء الشياطين الذين يعتقد جميع الناس انهم
لا عقل لهم ، أترأهم يعلمون من الأمر ما لا يعلمه غيرهم ؟
لقد عيل صبر السكان ، فأصبحوا يتجاهلون وجود هؤلاء المتسولين ،

ولا يكثرثون بهم * وكان عودة الصحو ، قد أبعدت تلك التهديدات
الحفية التي أنقلت المدينة في لحظة من اللحظات ، غير أن رجال الشرطة
أصبحوا الآن يرابطون في كل ركن من أركان الشوارع .

وفي الكهف لم ينس الناس زبيش قورا ، فمن حين إلى حين يروي
أحد الحائكين فكاهة من فكاهاته ، أو يقلد مشيته ، أو يتذكر حكاية
من حكاياته ، ثم يأخذ يشتم الصبي على سبيل المزاح ، كأن الصبي
لا يزال في الكهف يسمعه * وقد أحل محل زبيش في العمل بالمصنع
فتى من الضواحي ثقیل بدین .

حين عادا الى هذا المقهى مرة ثانية ، ما ان جلسا الى احدى الموائد حتى سمعا صوتا ضخما أبح يصل اليهما من خارج :

- يا الله ، ساعدنى يارب ، أصبحت لا أحتمل الحياة . لماذا تنسى عبدك يارب ؟ اقبض اليك هذه الروح التى هى ملكك ..

ثم رايا رجلا رث الثياب مفبرا ، هزما ، مستندا بذراعه الى طفل يتهافت على الأرض عند مدخل المقهى ، ويضع عصا بين ركبتيه المرفوعتين . انه يميل برأسه على صدره كأنه مكسور العنق ، ويلبث على هذا الوضع لا يتحرك ، حتى وكأنه يغفو ، غير ان يده الضخمة ذات الاظفار الطويلة لا تدع قبضة الصبى النحيلة ، تتشبث بها تشبث اليأس .

فلما رأى أحد زبائن المقهى هذا المنظر ، نهض واقفا بين الموائد ، ودفع شاشيته الحمراء الفاقعة ، وصاح بالمتسولين قائلا :

- انتما آتيان من الريف ؟

كان واضحا انهما آتيان من الريف ، فسؤاله اذن من نوع الأسئلة التى لا جدوى فيها ، ولكنها تطرح دائما .

دمدم الشيخ الهرم يقول وهو يرفع رأسه فى مشقة :

- نعم ايها المحسن .

واضطربت شفته السفلى وتركت لمجاجة من لعابه أن تقطر من فمه . ونظر المتسول طويلا الى جميع الناس من مكانه ذاك .

سأله الرجل :

- هل فى الريف مجاعة ؟

وكان الطفل قد تدرج على الشيخ تدرج الكرة .

قال الشيخ فى مثل رجوع الصدى :

- مجاعة !

ثم شخر شجرة غريبة مزعجة . فاستدار عكاشة فى هذه اللحظة مع كرسيه نحو الباب ، ونظر الى الشيخ . كان الشيخ ذاهلا ، مبهم العينين ، متجمد القسمات .

وقال أخيراً بصوته الأصم الثقيل :

— حتى عصافير رينا تموت جوعا هناك .
— العصافير ؟ آه . آه . آه اذن لم يبق على الاشجار ثمار ولا
بقيت بذور برية . اتيتم انتم على كل شيء ؟
وفغر الزبون فمه الواسع ، وانطلق في ضحكة صاخبة . ان قوة
ظافرة تخرج من شخصه . واسنانه البيضاء تلتصق في وجهه العريض
الذى عنى بحلق شعره عدا شاربويه الكبيرين المشدودين .
— من اجل الاكل انتم اقوياء . آه ، آه ، آه ، أما من اجل العمل
فتلك حكاية اخرى . هل يمكن ان تنال المجاعة من انسان يعمل ؟ انتم
اناس تؤثرون ان تستعطفوا على ان تبدلوا شيئا من جهد .
وانطلقت تلك الضحكة نفسها مرة اخرى تهز صدره الذى يشبه
ان يكون صدر هرقل . فخاف الشيخ الهرم خوفا ما كان لسوط
يقرقع فوق رأسه ان يبعثه في نفسه .
— آه ... ايها المحسن ...

فهز الرجل رأسه وقال :

— الارض لابد ان تنشج دائما . . . الا ان تكون الايدي التي تعمل فيها
خبيثة . . . وعندهم قد خبثت الايدي وخبثت القلوب جميعا . ان المرء
يستطيع ان يستنبت الصخر نفسه اذا اراد .
كان الصبي لاطيا بالشيخ يتفرس في الرجل في عنف موجه . وصمت
المتسول كالأخرس ولم ينطق بحرف .
عندئذ اتجه الرجل اليه ووضع في يده صدقة . فآخذ المتسول يدعو
له بصوته الغليظ الخشن ، ونهض وهو يثن جازا الصبي من يده .
ولكنه قبل ان يقف على قدميه تماما ترنح واوشك ان يسقط . ذلك
ان الصبي وقع على الارض ، وهم ان يوقع معه الشيخ .
عاد الزبون فجلس في مكانه ، وأخذ يتحدث مع رفيقيه في همسة
وحرارة .

نهض الصبي في عناء . وفضي هو والشيخ في الشارع الذي يقابل
المقهى . غير ان نوبة من سعال طويل استبدت بالشيخ فتوقفوا
مضطربين ، ثم سمع صوت الشيخ وهو يقول للصبي مؤنبا :

— ان لم تقف على ساقيك تركتك هنا .

وغابا بين الناس ، غير ان صوت الشيخ ظل يسمع متكررا وهو
ينادى في بعيد :

— يا اخوان ، يا مؤمنون ...

ظل عكاشة صامتا طوال ذلك المشهد . ثم عاد الى وضعه الأول

امام عمر دون ان يقول كلمة واحدة ، واستند بكوعيه الى المائدة .
لبث ساكنا لا يخرج عن صمته . اخذ عمر يشبهه في النية التي
كان يبيتها الجاثك حين قاده الى هذا المكان ، الى هذا المقهى . كان
قد أدرك ان عكاشة ينتظر منه أمرا من الأمور . فما هو هذا الأمر ؟
أيقين أم عزاء ؟ تشجيع أم التجاء ؟ لم يستطع عمر ان يعرف ذلك .
ولعل عكاشة نفسه لم يكن يعرف . غير ان عمر أدرك انتظاره هذا
ادراكا واضحا . فلما خطر بباله ذلك ، استولى عليه غضب أخفاه .
ونظر الى عكاشة ، ولكن عكاشة كان خافض الرأس .
ما الذي حدث ؟ لماذا يحس بحلقه جافا هذا الجفاف ؟
اتضح الآن كل شيء : كان عكاشة يريد ان ينقل اليه ما به من كرب .
لعله كان يلاحظ هو نفسه ذلك ، غير ان عمر على يقين من هذا .
وفي هذه اللحظة رفع عكاشة رأسه ، فاذا بالصبي يشعر بقلق
مفاجيء . بدا له ان صديقه قد اتخذ قرارا خطيرا ، فان قى وجهه كبرا
من الجهد .

قال عكاشة :

— هل نذهب ؟

فتحير الصبي لا يعرف ما الذي يجب ان عمله أو يقوله . ونهض
عكاشة نهوض من يمثل لأمر صدر اليه ، فتناول من جيب سترته
بعض النقود فتركها على المنضدة ، وترك الرفيقان المقهى الصغير
المظالم الهادئ .

فما أصبح عمر في خارج ، حتى أحس بقلقه يذوب ، ثم لم يبق في
نفسه من ذلك كله الا شيء من ارتباك في قرارة أفكاره .

كذلك اخذ عكاشة يتكلم عن السفر . قال : سيترك هذه المدينة ، وسيترك الناس كلهم ، حتى أسرته . نعم سيمضي ... وأخذ عمر يفكر . لقد كان يتوقع قرارا من هذا النوع . ولكن ، ما هو في هذا كله ؟

فهم أخيرا لماذا كان عكاشة لا يأخذ عمله مأخذ التقدير والاعتبار ، شأن سائر العمال . كان عكاشة لا يتحدث عن عمله خارج المصنع . هذا العمل الذي يستنفد أكبر شطر من حياته ، كان ينسأه متى خرج من المصنع . ذلك أنه وسائر العمال ، كانوا يتطلعون الى شيء آخر ، ويؤملون شيئا آخر . ما الذي يتطلعون اليه ، ما الذي يؤملونه ؟ لاشك أنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا . ولكنهم يتطلعون ويؤملون . أما عكاشة فقد تطلع وأمل : تطلع الى السفر وأمل السفر . أتراه كان بذلك يريد أن ينسى ظروفه أم كان يريد أن يتحرر منها ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار لعمله ، ولنفسه ، ولرفاقه ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار ؟ الاحتقار والشعور بالعار ؟ لطالما سمع عمر هذه الكلمات تتردد في الكهف :

« نحن لا قيمة لنا ، لا تنعبوا أنفسكم في المناقشة . نحن لا قيمة لنا » .

وكثيرا ما كان هذا أو ذاك من العمال يضيف الى ذلك الكلام قوله :

« هكذا خلقنا الله . . ولا حيلة لنا في الأمر » .

وكان زملاؤه الحائكون ، رغم ما بينهم من فرق في السن والمزاج والآراء ، يتشابهون في هذه النقطة : أنهم يتحدثون عن أنفسهم دائما في اشمئزاز . وكان عمر يفكر في هذا بحزن ومرارة . لعله أخطأ في أنه لم يفهم اشمئزازهم . أتراه قادرين ، بالتلمس بعد التلمس ، على أن يجدوا لانفسهم مخرجا ؟ .. وعملهم ؟ فيم كان يفيدهم عملهم إذن ؟ لماذا يقومون به ما داموا يحتقرونه ؟

وفي أثناء ذلك لم يطرأ على سلوك عكاشة أي تغير . لا يزال هادئا . ذلك الهدوء نفسه ، صامتا ذلك الصمت نفسه . وكانا اذا التقيا في

المطعم ، ظل عكاشة جالساً لا يتحرك ، ولا يبالي شيئاً ، ولبت ينظر الى امام بانتباه لا يضعف ، بينما الوقت يمضى . كان يظل على هذه الحال مدة طويلة لا يتحول عن النقطة التى اختار ان ينظر اليها من الفضاء . ثم اذا هو ينهض ، دون ان ينبس بكلمة واحدة ، وينظر الى عمر ، فينهض هو الآخر ، ويسيران فى الشوارع التى تدحرج سيل المارة والعربات المتدفق فيها ، وتحملها فى رفق ، فى رفق شديد ، الى حيث لا يعرفان ، وعكاشة غارق فى تفكيره ، مصيخ بسمعه ، كأن المدينة تهمس فى اذنه بشئ ..

وكان الحائك يزداد انطواء على نفسه يوماً بعد يوم . وسأله عمر ذات مرة :

— مستأفر ... وبعد ؟

ولكن عكاشة أجابه :

— يجب ان يولى البشر ما يستحقون من احترام . لماذا صار العالم الى ما صار اليه ، لماذا صار العالم شيئاً لا يشتهى المرء ان يلقى عليه نظرة ؟ لفقدان الاحترام . ان الذين يحترمون اخوتهم بنى الانسان ، لا وجود لهم اليوم على هذه الارض . كيف ينظر الينا الاوربيون مثلاً ؟ وكيف ينظر ماحى بوعدنان الى غيره من الناس ؟ الاوربيون ينظرون اليه على انه «العربى» أى الانسان الذى ليس له مثل أعلى ، الانسان المتمرغ فى الجهل والاهمال والاستسلام ، الانسان الذى لن يتبدل مهما يبذل من جهود من اجل ان ينظف نفسه من الوحل ، الخ ... وماحى بوعدنان ينظر الينا على اننا جياع ليس لنا مثل أعلى ، على أننا اقرب الى البهيمة منا الى الانسان ، على أننا اناس كسالى نريد ان نعيش من دون ان نعمل ، الخ ..

— أنت تكره جميع الناس .

— جميع الناس ؟

وفكر عكاشة لحظة ثم اضاف :

— ربما ...

— ذلك بعينه هو ما يحز فى النفس .

شد عكاشة قبضة يده ، ولوح بها لشاهد خفى لا يرى .

فى ذلك الصباح اشتد صياح الاحمر وصراخه ، وجاء بعد لحظة الى عمر فتقرس فيه من اخمض القدمين الى قمة الرأس ، ثم خلط الخيطان التى اتفق الصبى ساعات طويلة فى تكبيها ، فلم ينطق الصبى

بكلمة : وعاد يصلح ما افسده الاحمر من عميله . وكان الحائكون الآخرون يعملون صامتين . ان هناك شيئا يعذب حمدوش تعذيبا خاصا في هذه الأيام : لقد أصبح لغزا من الالغاز دون ما سبب ظاهر ، فهو يجتذب الناس ، ولا ينظر الى احد مواجهة ، ثم اذا هو يشور على حين فجأة . ان هناك عداوة لا سبيل الى فهمها كثيرة على جميع الناس ، حتى ليحس المرء انه لا يتورع عن ارتكاب أى عنف . كان يغضب ، ويشتم ، ثم اذا هو يهدأ دفعة واحدة .

فلما فرغ عمر من اصلاح ما افسده الاحمر من عمله ، مضى يجرى بشلل اخرى من شلل الصوف المنشورة في الخارج لتجف . ان راسه يطن طنينا موحجا ، انه جائع .

طاقت في ذهنه خواطر كره وبغض نحو الاحمر . وقال في نفسه ، على غرار عكاشة : « يجب أن اذهب » .
وتسائل بعد لحظة : « ولكن الى أين ؟ ومن أجل أن أنتهى الى ماذا ؟ .. »

فلما عاد مشقلا يكعب الصوف ، انبجس حمدوش وراءه ، وهمس في عنقه يناديه :
— عمر ..

فأدار الصبي راسه . ان في عيني الاحمر تعبرا لم يره الصبي فيهما قبل الآن .
— اضربنى يا عمر .

قال حمدوش ذلك وهو يقدم للصبي ظهره ، وعاد يردد بصوت خافت :

— اضربنى ، اضربنى .

فلما رأى عمر لا يتحرك ، مضى الى نوله وهو يقول :

— أنا سآمان .

ان الناس لا يعيشون الحياة التى يجب ان يعيشوها ، لكن سناجا أسود قد وضع في قلوبهم .

ان صداقة ملتبسة مترصدة قد نشأت بين حمدوش وعمر . لقد حاول عمر ان يفهم الاحمر . ولكن محاولاته سرعان ما أخفقت ، فان الاحمر قد أساء استقبالها . كان حمدوش يتور فجأة ، وتظهر عليه علامات الاحتياج . ذلك ان ما حدث في يوم الأحد التالي ، حين مر عمر بالمصنع متعطلاً ، فوجده فيه ، فاذا بالاحمر يكيل له سبلاً من التقرير ، قال له :

— أنت تهتم بأمرى آملاً ان تدلنى على طريق الخير ، أو ان تكتشف منه شيئاً فى نفسى . هذا منك أسراف فى طيبة القلب . ولكنك تضع وقتك سدى ، صدقنى . وكان فى لهجة هذه الكلمات ما جعل عمر ينظر اليه دهشاً . قال له :

— ما يحملك على هذا الظن ؟

فأجابه حمدوش مستاء :

— ما هو بالظن ، هو الواقع أراه فيسوّنى ، هذا كل شيء . . . قال حمدوش هذه الكلمات « هذا كل شيء » بصوت قاس أدرك فيه شمر عداوة مبينة . . فلم يقل الضنب شيئاً . وما عساه يقول ؟ وظل حمدوش يصب عليه غضبه . فتركه عمر بعد لحظة ، تركه يحضن مسخطة فى الكهف وحيداً . وفيما كان يخرج سمعه يقول هذه الكلمات :

— امض ، فليست خيراً من غيرك .

وبعد الظهر تجاشى عمر ان يمر بالمصنع مرة أخرى ، وأثر ان يتجول فى الشوارع . المدينة متجهمّة رغم أن الجو دافئ . ان أول أوراق الأشجار تخرج رموسها من البراعم خجلى شاحبة . ففيما هو فى ركن احد الشوارع إذ هو يجد نفسه فجأة أمام ذلك الرجل الذى كان فى تلك اللحظة لا يد أن يلقاه . كان حمدوش مقبلاً وهو خافض رأسه ، يدوس غبار الارض بقدميه فى ضجر واشمئزاز . فلما لمح عمر ، توقف عن السير فوراً ، ومال برأسه الى جانب ، وشزر فمه ، وتفرس فى الضنب وهو مقمض عينه اليمنى تصف اغماض :

— الى أين أنت ذاهب هكذا ؟

— لا أدري . وأنت ؟ قد اذهب أنا الى عكاشة في المطعم ، ولكن ..

— دعك من « ولكن » هذه . سأذهب اليه معك . هناك ما احب أن

أقسه عليه .

كان عمر لا يضمّر عداوة لحمدوش ، وإنما كانت تسوؤه نزواته العنيفة . أن هذا الشيطان الأحمر الذى يحقق كل واحد من الناس ، ويهين كل واحد من الناس ، كان يبدو عليه أن نفسه تنوء بحمل ثقل لا يرى .

أذعن الصبي ومشي دون أن يقول كلمة ، وكذلك فعل حمدوش سائرا سير عمر .

فكان يتعمد في أثناء الطريق أن يدوس على أكوام من الصوالة أو على برك من الماء ناقعة ، كما كان يزعم النساء اللاتي يمررن قربة بكلمات ملتبسة . فلما وصلا الى باب المطعم رفع عمر عينيه ونظر الى فيه . فدفع حمدوش الباب الأخضر ذا المربعات الصغيرة دفعة مستعجل ، واجتاز العتبة ، فما أن خطا خطوة حتى اصطدم بصاحب المطعم الذى كان يجتاز القاعة الممتدة في استرخاء ، وأخذ يشتم ، ودس في يده مع ذلك قطعة من النقد وأمره فى نزق قائلا :

— هيا لنا شايًا ، وارسل من يجيئنا بفطائر ..

وقد دخل عمر وراءه ، فلمح عكاشة جالسا على طرف مقعد فى احد الاركان ، مسندا كتفه الى الجدار . لم يكن بالمطعم كله أحد غيره . وكان على المائدة كأس من الشاي فرغ نصفها ، وعليه زرقاء من سجاجير باستوس .

فلما رآهما نشق من سيجارته نفسا طويلا ، ورد رأسه قليلا الى وراء ، ثم أخرج الدخان نافذا من منخريه . وبيده القابضة على السيجارة لوح لهما بإشارة مودة لا تكاد ترى . فخلع حمدوش سترته ، ورماعا على أحد المقاعد ، ثم جلس الى المائدة التى يجلس عليها عكاشة ، دون أن يدعو عكاشة الى الجلوس ، ورفع ذراعه فلطم بقبضة يده صدره عدة مرات وهو يقول :

— ها قد جئت اليك يا عكاشة . هذا أنا ، أنا نفسى . أنا شقى ؟

هـ .. اننى لاعرف ذلك حق المعرفة . ما أنا الا أقدار تداس بالاقدام . ما الذى أسعى اليه فى هذا العالم ؟ الى أين أنا ذاهب ؟ لقد فسد قلبى .

قال حمدوش ذلك ، وازداد وجهه شحوبا . كز عمر فكيه . ومضى

حمدوش يطلق آهات مختنقة ثم صمت . ظل وجهه عكاشة موصدا
لا يدل على شيء . أنه واضح كوعيه على المنضدة ، ومسند ذقنه الى
يديه الضخمتين . كان ينظر في عيني الأحمر ، وقد انفرجت شفاته
عن أسنانه المتلاثلة بابتسامة مبهمة .

سأله حمدوش بصوت مضطرب :

— ما بك ؟

— لا شك أنك قارفت ذنبا من الذنوب حتى أصبحت على ما أنت

عليه من حنق .

لم يجب الأحمر بشيء . ناداه عكاشة :

— حمدوش

فانتفض حمدوش ، واكتسى وجهه هيئة المحاصر . قال له عكاشة

مدمدما :

— أتيت طيب القلب يا حمدوش ، أعرف هذا .

فصاح حمدوش وهو زائع البصر .

— طيب القلب !

ثم نهض كالمعتوه ، واخذ بصيح بصوت عال :

— اسمعوا يا مخلوقات الله . . ان قلبي يحب كل ما هو خير

ونبل !

قال ذلك وشخر عدة مرات . ثم لم يلبث ان همس يقول في تدفق

بصوت جاف :

— ولكن انتظر أيها الاخ . انتظر ان تعرف ما فعلته اليوم !

فحدق اليه عمر يرى ما يلوح في وجهه من تصعر مضطرب .

ولكن حمدوش تابع يقول :

— في هذا الصباح ، في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، ذهبت الى

ماحي بوغان أطالبه ببضعة قروش . فرايت عند هذا الخنزير شريكه

المفتش ثفاف . فما ان ابصر بي ثفاف حتى رفع سبابته الى أنفه

وباعد عينيه ، وتفضل ففتح فمه وقال :

— « أنتم جميعا ، هنالك ، سكيرون ولصوص وما لا يعرفه أحد

الا الشيطان . . . أفضل شيء هو أن بوضع قطيعكم هذا الجربان في

السجن . ان صديقي — وأشار بإبهامه الى ماحي بوغان — ان صديقي

هذا الذي تراه ، يحتمل منكم ما لا يحتمل ، فهو رجل ذو فضل .

ثم انك أنت ، عدا ذلك بهيمة من البهائم . .

« تعتنى بهذا النعت اللطيف ، وأمسك بي من ياقة السترة وهزني

هزا . ثم غضن جبينه . فأحسست عندئذ أن الأمور سوف تجرى على غير ما يرام .

« قل لي ، أن بينكم رجلا تافها حقيرا اسمه عكاشة ... عكاشة ابن مراح ... هه .. أليس كذلك ؟ »

« وفكر قليلا ثم نظر الى علي حين فجأة نظرة شزراء وهو يسأل :
« ماذا يقول هذا الرجل ؟ تكلم . يقول « اننا لن نحصل على شيء ولن تتبدل أحوالنا ما لم نقلب الأمور عاليها سافلها . يجب أن تغير الوضع الذي نحن فيه ... »
« ذلك ما يقوله هذا الرجل .
« ماذا ؟ »

« ورشقني بنظرة كالسهم .

« أن تغير الوضع الذي نحن فيه ... ماذا ؟ »

« آ ... لا أدري ... انه لم يقل هذا الكلام .

كان عكاشة مغمضا عينيه لا يتحرك . وسيجارتته ملتصقة بشفتيه لا تتقد . غير أنه لم يلبث أن مضى فخرج من ذلك صفيح خفيف . ارتعش عمر . ثم نفث عكاشة الدخان ، فاخترق وجهه الكبير ذو اللحية وراء هذه السحابة .

عكاشة صامت ، وحمدوش يحدق إليه في نهم . ثم إذا بحمدوش يضرب المائدة بقبضة يده المشدودة ضربة قوية أوجعته ، فينتفض على المائدة كل شيء : القدح والسجائر . أن عمر يرقب المشهد مشدوها . وفجأة استبدت به رغبة لا سبيل إلى مقاومتها في أن يضحك ، وفي أن يضربه أيضا ، وفي أن يصيح به « كفى » ، لكنه كان في الوقت نفسه يخشى أن يفتح فاه . نظر إلى صاحب المطعم الذي كان يغفو على كرسي وراء البسطة وقد مال رأسه على كتفه . فبدأ له كل شيء أكثر سقما .

وتابع حمدوش يقول بصوت أبح أبيض :

« وسأنتى تفنأف مستعلما أيضا

» - والآخرون ؟

« - الآخرون ؟ (نظر حمدوش إلى ما حوله خلسة بطرف عينه ، وخفض صوته) . الآخرون ؟ لا شيء » هكذا قلت له .

« - والسجين القديم ؟ أن بينكم رجلا كان في الماضي سجيننا محكوما عليه بالأشغال الشاقة ، إذا لم يخطئ ظنى . هو أيضا . .

» - هو أيضا ماذا ؟

« - يحرك لسانه .

» - أهذا كل شيء ؟

« - نعم هو كل شيء .

« قال ذلك وأشهر أصبعه فقرزها في صدرى ، ثم أضاف :

» - حذار يا أحمر .

» فخفضت رأسى » .

قال الأحمر هذه الكلمات وهو يتكلم بيديه على المائدة الوسخة اللزجة منحنيًا ، وينهض نصف نهوض . كان يميل إلى أمام كمن يستجمع قواه ليثب ، ثم قال ينفع في وجه عكاشة بصوت لاهت :

« هل فهمت الآن ؟

فإذا يبريق يشتعل في عيني عكاشة على حين فجأة ، ثم ينطفئ بسرعة كما ائتمت بسرعة . قال عكاشة وهو يهز رأسه ويقطب

حاجبيه ، وقد لاح في وجهه العناد :

- ليس لهذا كبير شأن .

فوثب حمدوش على قدميه كأن نابضا يدفعه الى فوق ، واراد ان يعترض . ولكن عكاشة وضع يديه على المائدة هو الآخر ، قبل ان يقول حمدوش كلمة واحدة ، وأكد يقول له بلهجة واثقة :

- ان لك قلبا مليا يا حمدوش ، انك تحرق دماءك حرقا ...

- لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ لماذا ؟

وهز الاحمر رأسه في حزن شديد ، حتى خيل الى عمر انه سينفجر باكيا منتحيا .

اجابه عكاشة ببطء :

- لتعلم هذه الحقيقة .

فهدأ حمدوش فجأة ، وتمتم يقول بصوت خافت ، وقد لاح في وجهه الوجوم :

- ليتني أمضي أتابع مصيري في غير هذا المكان . يجب على أن أذهب .. يا لسوء طالعي ! ...

وتبلمت نظراته التي يحجبها نوع من دخان احمر . واخذ يحدث نفسه كأنها هو نسي وجود عكاشة وعمر .

ولكنه لم يلبث أن استيقظ من ذهوله ، فقال عندئذ فيما يشبه
الانين

- لا ، مستحيل

دخل الى المطعم رجل يرتدى ثياب العمل الزرقاء وينتعل حذاءين
باليين ، وهو يحمل بيديه سبحة من الفطائر عقدت بجريدة نخل ،
فأفاق صاحب المطعم من خدره ، ونهض فتناول ابريقا كان ينقع فيه
الشاي ، واتجه الى الرجل فأخذ من بين يديه الفطائر بطرف سبابته ،
ومضى يضع الابريق والفطائر على المائدة أمام الاصدقاء الثلاثة ،
بينما كان الدخيل يعود ادراجه دون ان يتبس بكلمة .
صاح حمدوش يقول :

- عظيم .

ورفع الابريق في حماسة ، فصب منه دفقة عارمة في كأس عمر
أولا ثم في كأس عكاشة ، وملا بعد ذلك كأسه . ولم ينتظر لحظة
واحدة ، بل حمل الى فمه فطيرة من الفطائر الساخنة قبلها لقمة
واحدة ، والحق بها كأس الشاي المحرقة التي صبها لنفسه .
قال يتمتم وهو منتفخ الفم :

- أنا سرور أنها الإخوان .

وغمز بعينه . لقد كان فرحا حقا .

- آه .. أنا سرور . اننى لا أعرف ما الذى أحسه فى اعماق

قلبي .

قال ذلك وهو يلطم صدره فى مكان القلب ، بقبضته المشدودة ثم
مسح شفتيه وعاد يقول بلهجة أهدا :

- حاولا أن تفهماني .

فأمن عكاشة على كلامه بحركة من رأسه . كان عكاشة يأكل هو

أيضا .

صاح حمدوش يقول بلهجة الظفر :

- ها ... هل رأيت ؟ هو اذن صحيح ما قلته . ان فى نفسى شيئا

من كل شيء ، لو علمت ... ولست أدري أين أضع قدمي . النتيجة .

لا اصلح لشيء . عبثا طوفت فى كل اتجاه : لا شيء . لا الأخلاق تجدى

ولا الحىض على الخير ... لا شيء من ذلك كله ينفع . لست أتورع عن

شيء ، لست أتورع عن بيع العالم كله ببصلة ، كما يقال ... حتى ديني

لا أنورع عن بيعة بيسلة . يالها من نعاسة . اننى أشبه بالدوارة التى
تدل على اتجاه الرياح : أدور ثم أدور فى جميع الاتجاهات
كان حمدوش يتكلم من غير حذقة ولا أدلال . لم يعرف عمر كيف
يفكر . ان هذا كله يهز نفسه هزا قويا . أنه مهموم حيران
وكان عكاشة يسحب من سيجارته أنفاسا طويلة ، وقد أغمض
عينيه نصف اغماض ، ثم لا ينفث الدخان الا بعد مدة ، فإذا نفثه انتشر
على شكل حلزون الى غير نهاية . وكان هذا الدخان يلفهم جميعا .
وكان جفناه يرتعشان فى بعض اللحظات ، فيطبقان . وكانت غصون
قاسية تتحد جبينه .

وانتصب فجأة يقطع الاحمر بقوله فى خشونة :
— كفى حديثا فى هذه الامور ! هذا الكلام كله قد سبق أن أضجرتنا
بترديده . . .
فرقع حمدوش كتفيه الى أذنيه ، كمن صب على رأسه قادوس ماء
بارد .

وقال عكاشة مقرعا ، وقد ظهر فى وجهه الاستياء :
— اننا نمشى حفاة ، وأسمائنا لا تكاد تخفى ما بنا من يؤس ، وليس
فى بطوننا ولا فى رءوسنا الا فتات وأوضار
فأخذ حمدوش يحك نقرته وهو ينظر اليه فى دهشة . ثم يقول :
— لست أخالفك فى رأى .

ومد يده الى عليه سجائر الباستوس ، رغم أنه ليس من عادته ان
يدخن ، فسل منها سيجارة وأتبعها من القنب الصغير الذى كان
عكاشة يقبض عليه بين السبابة والابهام . سحب من السيجارة نفسا
ثم نفث الدخان كله على الفور ، وعاد ينشق نفسا آخر . قال بلهجة
الاهتمام والاعجاب

— ما أكثر ما تدخن !
— أدخن ما كان معى سجائر ، حتى اذا نفدت توقفت عن التدخين .
فلما سمع الاحمر هذا الجواب انفجر يضحك قويا ، وهو يقرع
بقدميه الارض ، ويهز رأسه ، وينثنى تصفيق . قال :
— هذا اسمه كلام حقا .

ثم لم يجدا بعد ذلك ما يقولانه من كلام . ان حمدوش جالس على
مقعده وهو فى حالة عصبية . واضح ان هناك فكرة تشغل باله .
فتارة يقرب رأسه من عكاشة يتفرس فيه ويركز عليه انتباهه كله ،
وتارة يشيح بوجهه . والظلام يكاد يخيم فى المطعم .

أخذت الأشياء تقيم . قال حمدوش وهو ينهض بوثة :
- يجب أن أذهب إلى « هناك »
ففهم عمر ما يعنيه بقوله « هناك » . ان كلمة « هناك » هذه تعنى
زارا التي اودعها الاحمر قلبه
وأضاف حمدوش سارحا دون أن يسأله أحد شيئا :
- يجب أن أذهب إلى « هناك »
عندي ، الوحيدة ، الاولى .
قال ذلك وهرع يخرج من المطعم . وبقي عمر وحده مع عكاشة .

وبعد قليل خرجا من المطعم هما أيضا . وفيما كانا يطوفان في المدينة على غير هدف ، صامتين ، يستشققان أواخر أيام النهار ، قال عكاشة على حين فجأة :

- عمر ، ما قولك في أننا مستولان عن هذه الحياة البائسة التي يعيشها اخوتنا ؟

وضحك تلك الضحكة العذبة ، الخجلى قليلا ، المعهودة فيه مع أنها لا تكاد تشبهه . واستدرك يقول :

- طبعاً ليس ذنبنا أن الناس يحيون هذه الحياة الشقية . ومع ذلك أحس دائماً أن لنا في ذلك يدا . لن نستطيع أحد أن ينتزع هذه الفكرة من رأسي .

وصمت مرة أخرى ، ثم أضاف بعد بضع خطوات :

- أظن أننا نكون مدنيين قليلا إذا لم نفعل شيئاً من أجل أن نوضح للناس ما يجب عليهم أن يعملوه حتى يكفلوا لأنفسهم حياة أفضل .

قال عكاشة هذه الكلمات بنبرة توشك أن تكون نبرة مذلة .

وأضاف :

- لك أنت أقول هذا الكلام ! ..

فابتسم عمر . كان الليل قد هبط . وهذا ضباب أسود رقيق يتموج في الهواء ، ويتخلل المنازل والمارة والأشياء ، التي تبعد عنك كلما اقتربت منها . التفت عكاشة الى عمر وابتسم مثله . ثم قال .

- كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئاً .

ودس الحافك يده في إحدى جيوبه ينشها ، ثم دسها في جيب أخرى ، ثم سأل صاحبه بمرارة لا تتفق ولهجة المرح التي كانت تشيع في كلماته .

- أليس معك سيجارة تعطينيها ، أليس معك أى شيء أدخله ، أى شيء ولو كان سما ؟

كان عمر قد أخذ يجرب التدخين منذ مدة خفية ، فهو يشتري سيجارتين أو ثلاثاً من صغار البائعين ، وفي جيب سترته الآن واحدة . مد عمر يده الى الجيب الصغيرة ، فسل منها السيجارة في رفق ،

فتناولها عكاشة ، فأشعلها بعود ثقاب ، وجعل يدخن • ان الظر - للام
يغيب وجهه الآن ••

قال عمر سائلا في تعجب :

- كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا ؟

فحرك عكاشة يده بإشارة في الهواء . وقال :

- كأنها لا تتوقع شيئا •••

ثم أضاف بلهجة فيها الحلم كله والاخوة كلها :

- ••• شيئا عظيما .

- لا بد ان هناك أسبابا تحملك على هذا الاعتقاد •• لا بد ان هناك

أسبابا تدفعك الى هذا الكلام •••

فقاطعه الحائك يقول :

- أسباب ؟ أتظن ان هذا لا يزال له وجود ؟

فأجابه عمر :

- ولماذا تعتقد انه لم يعد له وجود ؟

فالتصمت عينا عكاشة في الظلام ، ونزع من وجهه الأسود صوت

أجش قليلا ، متأخر قليلا ، يقول :

- طوفت في البلاد ، وتحدثت مع كثير من الناس .

- في أي شيء يفكرون ؟

- ذلك ما سألتهم عنه • قلت لهم : ماذا تعملون ؟ فيم تنفقون

أيامكم ؟ فإذا كل ما أجابوني به لا يمكن أن يسمى شرحا ولا بداية شرح

واستأنف عكاشة بعد لحظة :

- اليوم انما ينبغي أن يسير المرء في الطرقات محاولا أن يعرف

ما يدور في أذهانهم .

قال ذلك وهو يرقص رأس سيجارته المتوقد أمام عينيه •

وأضاف متنهدا

- انها للذة أن يدخن المرء سيجارة حقيقية : تدخينها فإذا براحة

مقدسة تفزو قلبك • وفي وسعك أن تهزها ، وهي كذلك سلاح ، هي

فان تشق الفضاء • آه •• ليت لجميع الناس سلاحا حقيقيا •

قال عمر وقد تقلص حلقه قليلا :

- لم السلاح ؟

فأجابه الحائك بقوله :

- آه •• انها للذة دائما ان يملك المرء سلاحا حقيقيا •

وسحب من سيجارته أنفاسا حانقة ، ثم توقف يشرح بصوت خافت :

— يخطر ببالي أحيانا أنه يكفي أن يملك جميع الناس سلاحا .
انهما يسيران الآن في الظلام دون أن ينطلقا بحرف . والمدينة من حولهما تسترخي ، متهيئة لراحة الليل الكبرى . وقع الإقدام يقرع الأرض في كل مكان : وما ينفك يتجدد من شارع إلى شارع ، في فتور الليل الساجي . وأطل الشارع الذي كانا يسيران فيه على مقهى ينيره مبدل من الضوء ، فهو يبدو من بعيد كأنه يفيض شمساً .
قال عكاشة :

— عم مساء يا أخى .

— عم مساء

كان عمر سائرا يتفرق من البرد في هذا الفجر القارس ، وقد وضع يديه في جيبه . ان الريح تشير تحت خطواته غبارا اذهب ، وتجرف مرقا بالية من جرائد ملطخة ، ونشارات خشب وأوراق أشجار . فلما وصل الى حيث يرى المصنع من بعيد احتار وارتيك . ذلك أنه رأى ماحي بوعدنان وأقفا يحرس باب المصنع وقد برز كرشه الضخم . أحس الصبي بانزعاج لم يستطع كبجه ، ولعن الرجل . ان عليه أن يمر تحت أنف المعلم ، فكيف السبيل الى تحاشيه ؟ غير ان ماحي بوعدنان كان يبدو عليه أنه ينتظره ، لا يحفل بهبات الريح الصقيعية التي تصفع جلبابه المصنوع من وبر الجمل .

فلما صار أمامه سمع أنفاسه التي تخرج من صدره في عناء . كان المعلم يتنفس تنفسا ثقيلا .

قال يتذمر بصوت جاف :

- هانت ذا ... الآن تصل ؟ ... ما ينبغي أن يزعج المرء نفسه .

وتنحنح يكشف حلقه المتسخ ، ففاحت في زفيره رائحة الحمز .

- ولا سيما اذا لم يكن هناك عمل .. احم ... هيا .

وكانت نظراته المترنحة متشبثة بعمر .

- يسرك أنت ألا يكون هناك عمل .

وتمتم يقول بين أسنانه :

- كسلان ، ثيال .

انه لا يقوم بأية حركة يحتمى بها من الريح . وكان في وسط جيبه

أثر لظمة يسودها البرد .

- اعترف بالحقيقة ، أليس يسرك ألا يكون هناك عمل ؟

ثم ربت في لطف على كرشه الذي أخذ يتراقص تحت الجلباب وهو

لا يزال منشبا نظراته في عمر .

- انى أشد منك خبثا ومكرا . فحذار .

كان صوت ماحي بوعدنان يعلو ويصفر ، ووجه الصبي يستقبل

أنفاسه الشنة . وعشا تهب الريح على الرجل شديدة عاتية ، فان

قرصاتها الباردة لا تحرك فيه ساكنا .

وظل يهز كرشه الضخم بيديه في غير حياء
أخذ الصبي يفقد هدوءه شيئا بعد شيء . أنه يشمر بالخجل والعار
أمام هذا الرجل السكران . وأدخل عنقه في كتفيه .
— أنا ذاهب إلى العمل يا معلم .

قال ذلك وهم أن يغور في فم الكهف المظلم ، لولا أنه سمع المعلم
يصيح به فجأة .

— قف . أنت الآن مستعجل ، هه . لا ، يا سعادة البك . . . أرجع .
سوف تتناقش معي قليلا . السنّا صديقين ودودين ؟ أليس بيننا
صداقة كبيرة ؟

فعاد عمر أذراجه ، وجعد بوغان وجهه .
كانت أصوات الحائكين الحانقة تتصاعد من الكهف ، وقد علاها
جميعا ذلك الصوت المقاتل الملهب المعاند ، صوت حمدوش .
قال عمر للمعلم

— سوف يصيبك برد يا معلم .
وفي هذه اللحظة ترنح مآحي بوغان ، وكاد يهوى على الأرض ، لكنه
استطاع أن يسترد توازنه فانتصب أمام الطفل متكبرا ، ومد عنقه
في جهد . قال متنهدا :

— أهذا هو الكلام الذي يسعفك به عقلك ؟

— ذلك . . . أنك إذا أصبت ببرد مرضت .

— ما هذا الهراء ؟

— أقول أنك إذا . . .

فمط المعلم شففيه ، وأرجح رأسه على صدره .

— لماذا تقول لي هذا ؟

كان ينظر إلى عمر من خلال حاجبيه ، بانتباه مفرط هو ذلك الانتباه
المعهود فيمن أخذ منه السكر كل مأخذ ، تابع يقول :

— لماذا تقول لي هذا ، أنا معلمك ؟

خاف الصبي .

— هه ؟ لماذا ؟ لماذا تقول لي هذا أنا معلمك ؟ لماذا ؟ أنت مشفق

على ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يؤكد لي أنك لا تخفي شيئا آخر ؟
من ذا الذي يؤكد لي أنك لا تتمنى لي الموت مثلا ؟ هه ؟

قال ذلك وهي رأسه .

— وهبك مشققا علي ؟ يا للشقاء ! أمثلك يشفق علي مثلي ؟ . . .

وأطلق شتيمة كبيرة ، ثم القى على ما حوله نظرة غائمة .

— آه ...

وانتفضت عدة ثوار تساءل عمر خلالها عما عسى أن يحدث .
وقباجة قال بوغنان مقرعا :

— ماذا يصل أسبابك بأسبابي حتى تشفق على وترثي لحالي ؟
وانشعب يده في عنق الصبي .

— اذهب ... واعلم أنه ليس على هذه الأرض إلا أوغاد .. ليس
في وسع طرح من نوعك أن يبرهن لي على خلاف ذلك ؟ أنت تشفق ،
أنت ؟ ما أنت إلا وغد .

وردد بحار قائلًا

— وغد .

واخذ المطر ينزل رذاذا رقيقا . وهدأت الرياح قليلا ، فهي تنوح
الآن نواحا ضعيفا . وماحي بوغنان ساكن لا يتحرك كأنه كتلة من
حجارة . ان بريقا أخضر قد اشتعل في عينيه الدهنيتين . وانتفض
قباجة يقول :

— اذهب .. ما وقوفك هنا ؟

فاندفع عمر يغور في المدخل المظلم ، ويهبط درجات السلم الاثنتي
عشرة دون أن يراها . ومضى الى مكبه متعشرا .

اختفى المعلم . انه لم يجرى الى الورشة في مثل هذه الساعة المبكرة
من الفجر ، يدفعه ما يدفع السكير الى مثل ذلك ، الا هو خارج من
ليلة قصفه .

- في الليلة الماضية سكرنا سكرة كبرى . وفي الليلة التي قبلها أيضا . وانتهت السكرتان كلتاهما بالضرب . واستمر الضرب في هذه الليلة أيضا . . ثلاث ليال متتالية . . يا للإنسان البغيض ! لم يكن قد أفاق من سكره تماما حين كان هنا منذ قليل .
ونظر مصطفى رزاق الى الحائكين واحدا بعد واحد ، وفتح فمه فتشأب ثم تنهد يقول حاسدا :

- ياله من رجل ، معلمنا هذا ، هه ؟ .. قال شول :

- نعم . هل تجدون في المدينة كلها رجلا مثله ؟ اليس على حق ؟ ان ماله هو ملكه يفعل به ما يشاء ، ولا يدعه يعفن في خزانة من حديد وكان شول يرتدى صديرة يلبسها فوق القميص ، وينطلقنا يتموج بلا حزام . ان فكرة تهديد المال في القصف والهجوم قد أثارت حاسته . قال :
- يكسبه الآن وينفقه بعد لحظة . المال يسيل من بين أصابعه . انه لجدير حقا باسم الماجن . لو عملنا ليل نهار من اجل ان نهيب له من الدراهم مالم ير احد منا مثله في حياته كلها ، لعرف كيف يبدده على الفور . انه لرجل .. قال قوطي الأمين منتقدا بقوة :

- يعرف كيف ينفق في الاثم ، اما بعد ذلك ، فيا ويلنا ! .. انه يماطل في الدفع أسبوعا بعد أسبوع ، ثم لا ينقدا قسطا من أجورنا الا في ايام الاعياد . لكنه يأمر بأن نحيك له أربعين بساطا في اليوم ، اي ما يساوي مائة وستين كيلو جراما من الصوف .

- انه لسيل لعابكم انها الصالحون الاتقياء . حاولوا ان تفعلوا مثله . ولماذا لا تجرءون على أن تقولوا له شيئا حين يكون هنا ؟
قال شول ذلك ، وهو يرشق معارضه بنظرات متقدة حائقة .
- انه يعرف كيف يلهو ، اما انتم ، فمن ذا الذي يستطيع ان يقول لماذا تعيشون ؟

لم يجب قوطي الأمين لا بنعم ولا بلا ، وانما التقى حاجباه عند

منبت الأنف في ثنينين ، ثم مال على نوله ، واتجه بانتباهه كله الى
خيط اللحمه يدسه في المكوك
وارتسمت على الوجه النحيل ، وجه شول ، ابتسامة ظفر خبيث .
قال عكاشة :

— من يسمعك يحسبك فخورا . . . كأنك انت من يدور عليه الكلام
— كيف ؟ اليس هناك ما يدعو الى الفخر ؟ اما انا فأؤكد ان هناك
ما يدعو الى الفخر كل الفخر . هذا رجل لم يكن يملك قرشا واحدا .
أصبح ام لا ؟ كان عاملا يعمل بأجر ، مثلي ومثلك ، كان شخصا
لا يساوى بصقة . ثم ماذا أصبح ؟ أصبح كبار تجار المدينة أصدقاءه ،
وأصبح وجهاء الفرنسيين يحترمونه ، وأصبح أحد مفتشي الشرطة
رفيقا من رفاقه . حاول أن تمكر به يضعك في السجن في مثل لمح
البصر . وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، مثلي ومثلك .
كان شول يقول هذا الكلام في حماسة ما تنفك تزداد ، وصراخ
ما ينفك يقوى .

— أقول انه سرق ، وربما قتل ؟ انه ليتفق كثيرا أن يقال عن فلان
أو فلان من الناس ، من قبيل الحسد ، انه سرق أو قتل أو دس
سما ، مع ان الامر لا يعدو ان يكون قد نجح . نحن اناس لا نحب ان
يواتى الحظ أحدا . حتى اخوتنا في الشقاء لا يطيقون أن يروا أحدا
منهم يخرج من حالة البؤس التي هو فيها .

وأمسك فجأة عن الكلام ، وألقى نظرات حاقدة سقطت على الصبية
المكبسين ، فأنفجر بصيح بهم حائقا :

— كان ينبغي أن تفرغوا منذ ساعة يا أولاد النحس
قال عكاشة :

— هو المال الحرام يذهب كما اتى .
فضحك عثمان الاحمر ضحكا قويا ، ثم نادى يقول في الصمت الشامل :
— الموت . آ . . . الموت . كل شيء صائر اليه . . .
فانقبض صدر عمر .

وفي آخر الكهف ، أخذ يغنى صوت مرهق مكدود ، يكاد يكون صوت امرأة :
لم يبق لي في حياتي سعادة أرتجئها
وانهمك العمال في عملهم بحماسة آلية .
ولت حياتي ضياعا . . . يا موت هيا الى
وتنهذ أحد الحائكين ينادى :
— بارب .

كانا يسيران في عبق الربيع • عكاشة يتكلم ، وخطاه تبطؤ في بعض الاحيان • وكأنما لاحظ فجأة ما يحيط به ، فاذا هو يتوقف عن السير توقفا تاما فيرفع انفه ، ويلبث عدة لحظات ينشق ويتنسم الهواء الجديد ، في نشوة غريبة عذبة محرقة • قال :

- الشعب ملكوت الله ... الشعب روح العالم • ما من احد علم الشعب ، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره ، وينشرها بكلتا يديه في سحاء ...

ونظر عكاشة الى عمر بطرف عينه ، كأنما هو يغضى اليه بسر ، قال :
- منذ مدة طويلة ذهبت أطوف في الطرقات ، أيها الصغير .. فرأيت الشعب ، وعرفت الشعب • وأصبحت منذ ذلك الحين لا أستطيع أن أعتاد الحياة الساكنة • ظننت في اول الامر انني سأستطيع ذلك ، وتجلدت وكأبرت وجريت صورا شتى من الحياة ، فلم يجدني ذلك كله قال ذلك وصوته يزداد بحّة ، ثم أضاف :

- وأنا اليوم مضطر الى الاعتراف بأنني أصبحت لا أطيق الحياة الساكنة • لا أدري ما الذي يحدث لي ، لا أدري هل يجب على أن أبقى هنا ... لا أدري ..

وكان هبوط الليل يقترب • وكانت تجرى في السماء غمامات لا تزال مذهبة • وكانت الحركة التي تستبد بالناس عند الفسق قائمة قاعده - كل شيء في المدينة بارد سيئ • البائع في المدينة ملك • ويل لمن يريد في المدينة أن يشور على جنس التجار • ان المدينة هي العالم الذي يعيش بغير أمل •

كان عمر ينظر اليه جلسة وقد انقبض قلبه • فقال عكاشة عليه وهمس في جوف أذنه :

- عاشت الحرية أيها السيد • ينبغي أن نمضي باحثين عنها في الطرق • الناس هنالك يكرمون اخوتهم •
تفرس الصبي في وجهه تفرسا قويا •
- لك أنت أقول هذا الكلام ، أيها الطفل •

وظلا يتجولان الى أن التبس الظلام ، فافترقا • ذهب عكاشة الى مقهاه المألوف ، وعاد عمر الى بيته •

- دغ الشعب • فيم تتكلم دائما عن الشعب ؟ دغ الشعب يتألم •
قال حمدوش هذه الكلمات وهو يمد شففيه كطفل حاقد •
- دغه فى فاقتة • أهو يتألم ؟ ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله له ؟
ولم يجب عكاشة ، فاستأنف الاحمر يقول :
- دغ الشعب ، وليعش كل واحد على نحو ما يريد •• على نحو ما
يجب • الرجل الذى سيخرجنا من الحال التى نحن فيها ، لم يخلق
بعد •

ثم أغمض جفنيه نصف اغماض ، وراح يهتز ذات اليمين وذات
الشمال كما يفعل مرتلو القرآن • ان عمر لم يشعر فى يوم من الايام
بأنه قريب من هذا الشخص المحير ، كما يشعر بذلك فى هذه اللحظة •
كلماته المرة ، نبزته التى تدل على الغدا ، كل هذا ••
قال عكاشة :

- جميع الناس يتكلمون كما تتكلم •
- كما أتكلم ؟ من الذى يتكلم كما أتكلم ؟
- جمع لا يحصى عدده •
والح الاحمر يسأل :
- ولكن من ؟ من ؟
- أناس حمقى •

فجحظت عيننا حمدوش ، وعوى كما يعوى ابن آوى ، وانتصب واقفا
بوثة واحدة • ان ذؤابته الحمراء المتقاتلة تلتمع كأنها مشعل • وكان
لابد من أربع سواعد قوية ، هى سواعد حمزة وحسين ، من أجل أن
يمكن الإمساك بهذا الانسان الذى ركبته الجن ، ومن أجل رده الى القعود
حيث كان •

وأراد حمزة أن يصلح بين المتخاصمين ، فقال :
- لا أحد بيننا شرير اذا ما أخذ على حدة (كان صوته الضخم
يجرى بالكلام كالغناء) • واذا اتفق أن رأينا أحدا شريرا ، فإنما
يكون ذلك على غير ارادة منه ، اذ لا يستطيع أحد أن يسيطر على
مصييره • الانسان الذى لا سلطة له على القوى التى تسحقه ، لا سلطان

له على نفسه . ولكن اذا جاء اليوم الذى يحطم فيه كل شىء ، تبدل الامر ...

كان الحائكون يسمعون هذا الكلام ، فلا يؤيدون ولا يشجبون . وقد ساق حمزة أقواله ، بذلك الصوت الاسميان ، بتلك النبرة المشفقة التى لا يعرفها أحد فى غيره . وتابع يقول :

- على أن فى الدنيا قلة من الناس جبلت على الشر .. فهؤلاء .. سيلقون جزاءهم عاجلا أو آجلا .

تقلص وجه عكاشة ، وكز فكيه . فلما رأى حمزة هذا التعبير الذى ظهر فى وجه زميله ، ابتسم من خلال كشمس لحيته الشهباء ابتسامة تدل على كثير من سلامة القلب .

وكان العمال الآخرون يأكلون وهم يتابعون الكلام بوجوه موصدة لا سبيل الى النفاذ اليها . كانوا كأنهم يستنكرون فى قرارة نفوسهم هذا الاضطراب كله . لقد امتلأت رؤوسهم بأحلام غامضة ، فهم يتأملون هؤلاء المثرثرين دون أن يظهر عليهم أى اهتمام بهذه الاحاديث الطويلة ، كما لا يظهر فيهم أنهم يرون هذه الجدران المحيطة بهم ، ولا هذه الانوال المتعبة ، ولا ذلك الظل الثقيل الباعث على الغثيان الذى يثقل على اكتافهم .

قال الاحمر معقبا ، ولا يزال شعاع من جنون يسكن نظرتة :

- نحن لا نصنع لا خيرا ولا شرا ، وانما نحن قابعون نستنقع بين الاثنين فى غير جدوى .

وقال حسين طرف ، الملقب بالقنفذ ، قال يسأل عكاشة :

- قل لى : اذا أراد أحد ان يسافر الى فرنسا سيرا على قدميه ، هل يستطيع ذلك ؟

فأجاب المسئول :

- لا .. فالذى أعرفه هو ان عليه أن يعبر البحر ، والبحر ، كما تعلم ، لا يمكن عبوره سيرا على الاقدام .

فلم يصف حسين طرف شيئا ، وانما غاص فى الافكار التى ايقظها فى نفسه جواب عكاشة . انه يحاول ان يعرف هل أجابه رفيقه صادقا أو هو كذب عليه وسخر منه . ان هذا الرجل الاعجز يشبه منظره منظر شجرة تالفة . كل ما فيه أسود : الرغب والجلد والنظرة . أما شعر رأسه الذى يحتل جزءا من جبينه العنيد ، فانه منتصب انتصاب أشواك مهددة .

وكان حمدوش الذى لا يزال حائقا كل الحق من مشاجرته مع
عكاشة يعذب الأرض بطرف قطعة من الخشب فى غضب شديد .
قال يدمدم :

- لا أحد يعلم شيئا .. وأنت تنزل نفسك منزلة عراف لا يجهل
شاردة ولا واردة .

فأجابه عكاشة وهو يشير برأسه الى عمر :
- اسأل الصبي يجبك . لقد تعلم ، هو ، فى المدرسة .

فقال عمر :

- نعم ، يجب عبور البحر .

فقال حمدوش ثائرا :

- لشد ما تضجرنى صحبتكم !

- لقد تجبرتم حتى أصبحتم لا تؤمنون بالله ، ولكن كيف يمكن ان يثق المرء بكم بعد الذى سمعه من أقاويلكم وبعد الذى رآه من سلوككم ؟ على أنكم ما ينبغي أن تؤاخذوا ، فلست أظن انكم تتحدثون حديث الجدا أبدا .

قال قوطى الامين هذه الكلمات وتأوه ، ثم زم شفقيه زما قويا ، وأخذ يفكر ، وأغمض جفنيه .

- لست أدري ما هذه الفكرة المجنونة التى تستبد بالناس ، انهم يسرقون فى الحديث والاستماع ، ويبحثون ثم يبحثون ثم ما ينفكون يوغلون فى البحث فى هذا الظلام الذى يلفهم . ولا شك أن هذا هو ما ينشأ عنه الاثم .

أن نبرة من عذاب قد تسلمت الى صوته ، حتى ليحس المرء أنه مستعد لأن يغفر للناس رغم أنه ما كان له أن يفعل ذلك منشرح الصدر .

واستأنف يقول بصوت خافت :

- ماذا يريدون ؟

فنظر اليه حمزة خلسة وهو يتقدم بحاجبيه الى أمام :

- يريدون أن يطعموا من جوع ، وأن يعاملوا خيرا مما تعامل البهائم .

فنهض قوطى الامين ، وابتعد عن الجميع دون أن ينبس بكلمة ، ومضى يقعد بعيدا فى ركن من الاركان .
لكنه قال من مكانه سائلا :

- لماذا لا تكفون عن الشكوى ما دمتم ، أنتم أنفسكم ، لا تعلمون شيئا من أجل أن تبدل حياتكم ، وما دمتم لا تحترمون الانسان الذى فيكم ؟ ان الشكوى يمكن أن تكون منكم أيضا .
قال حمزة :

- صحيح .

- إذن لماذا لا تعمل شيئا ؟

- اذا كان الامر امرى ، فأنا أيها الاخ مستعد لان أفعل كل ما يطلب الى فعله .

قال حمزة ذلك وباعد ذراعيه وهو يضيف :

- ولكن ما عساي أصنع وحدي ؟

- المرء يحاول .

فهز حمزة رأسه ليقول لا ، ثم أضاف يشرح بلهجة متأنية :

- لا أحد منا قادر وحده على أن يبدل الواقع .

- بل قل لا أحد قادر على أن يعارض قدره .

هكذا هتف يقول عباس صباغ الذي كان جلس الى نوله ، وقد أظلم وجهه .

وحاول حمزة أن يناقش ، ولكن محاولاته ذهبت سدى . كان

واضحاً أن الحائكين الآخرين لا يكاد يختلف تفكيرهم عن ذلك ، حتى لكان تصور حياة أقل شقاء يؤذيهام مثلما تؤذيهام اهانة .

وحين جلس قوطى الامين الى نوله بعد لحظة قال بكلمات سريعة قصيرة وهو يحرك يديه :

- نصيبك لا بد أن تناله . افهم جيداً ما أعنيه : أنت قد تكسح

كالنور ، وقد تكون أذكى الناس وأمهريهم ولكنك لن تأخذ الانصيبك .

كن غشاشاً أو سراقاً أو مكاراً ، فلن تنال الا نصيبك .

قال ذلك ومال على احدى ساقيه ثم مال على الأخرى ، وصمت .

ان يديه الشعراوين تمسك يسراهما بخيط الصوف ، وتمسك يمانهما بالمكنك . لم يدرك انه ناقض نفسه بنفسه . على أن ذلك أمر شائع

فى الكهف لا يهتم به أحد .

- فما هو السلوك الذى يجب أن نلتزمه فى الحياة ؟ لقد قيل :

« من تقدم الى الله عارياً كساه » . ونحن أناس لا نريد الا ثياباً

مستعارة ، وكذلك جميع الناس ، يستوى فى ذلك الظالم والعاقل .

نحن جميعاً عراة على أبشع صورة من العرى . كلنا عرضة للانظار

بشكل مخيف . . والثياب الغريبة التى نطن أننا متدثرون بها لا وجود

لها الا فى خيالنا .

خفض العمال الآخرون أنوفهم ، وكان واضحاً أنهم قد تأثروا بهذا

الكلام . كان قوطى الامين يتحدث على مهل بصوت قوى . وكان

حمدوش وحده ينظر اليه فى وقاحة . فلما لاحظ الحائك العجوز ذلك ،

أمسك عن الكلام ، فاذا بالاحمر يخرج من فمه صوتاً ماجناً .

- رجل بغير حياء .

قال الامين ذلك ولعنه ، ثم أضاف :

- حين ستوسد قبرك أيها الزنديق ..

فقاطعه حمدوش يقول وهو يغمز بعينه :

- لسوف نموت جميعا ، فلا حاجة حقا الى هذه الترهات كلها .

ولكن يخيل الى أن ذهنك مشوش بها كثيرا .. أتراك غير مرتاح الضمير ؟ ..

فزأغت نظرة الامين ، وقال :

- سيقنص لي الله منك أيها الشيطان .

ثم قال بلهجة غريبة ، هي لهجة من يأمر الآخرين ويستهل اليهم في الوقت نفسه ، أن يصدقوه :

- الناس عازفون عن الحياة الصادقة الخالصة التي ترضي الله .

ولكنك ان حضضتهم على أن يعيشوا على نحو آخر كنت تشوش نفوسهم . اني أؤكد ذلك .

فصاح حمدوش يقول :

- ببغاء .

فاغبر وجه الامين ، وأظلمت عيناه القاسيتان الكايتتان . ولم يجب على الاهانة . وكان يهم ان يتابع حديثه ، فإذا بالاحمر يصرخ ، وكان يراقبه :

- أنه مجنون .. مجنون تماما .. عليكم بالمجنون .

فقال قوطي الامين عندئذ بصوت أبيض :

- عقابك عند الله .

وكان عثمان الملقب بالموت ، يذرع الممر المتوسط بخطا مختالة ،

فاذا هو يدور في مكانه ، فيغير اتجاهه ، ويستأنف بختصرته ، ثم يصعد درجات السلم في بطة ، حتى اذا صار عند الباب ، نظر الى قاع المصنع ، ونادى يقول بصوت عريض :

- أنا الملك .

فالتفت جميع من بالمصنع اليه فراوه ماذا ذراعه يشير باصبعه الى الصبى الجديد ثم يقول :

- جزاؤه أن يضرب بالعصا على أسفل قدميه مائة مرة دون توقف .

فرشقه الصبى بنظرات حائقة . ورفع باصقالى وجهه الابيض المبهم من فوق دولابه ، يصغى الى الحديث .

قال عثمان منندرا في عظمة :

- استعد ، فسوف تنال جزاءك .

حاول عمر أن ينظر الى مكان آخر حتى لا ينفجر مقهقهها ، وقامت في المصنع عندئذ صيحات وشتائم ومقهقات ، واختلط الحابل بالنابل .
ان جميع الحائكين قد تركوا عملهم ، فبعضهم ممسك بأضلاعه ، وبعضهم يئن .

قال عثمان وهو يصطنع هيئة القسوة :
- ماذا ؟ أين الغرابة ؟ الست ملكا على نفسي ؟
فما سمع العمال ذلك ، حتى هبت في المصنع عاصفة من الضحك أعتى من الاولى .

وكان جلول حداد أول من استطاع أن يتكلم ، وهو يمسح دموعه :
- لقد أحسنت الكلام . . أنت أحكمنا جميعا .
قال عثمان :

- سكوت . . الموت وصل . .
فصاح به أحدهم :

- ألا انك لطير شؤم .

فأجابه عثمان بقوله :

- لن تعيش مدة طويلة .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم الى الكهف على حين فجأة . فسرعان ما خيم الصمت .

سأل ماحي بوعنان :

- ماذا هناك ؟ هل اقتتلتم ؟ لكان في مصنعي وحوشا .

هبط عثمان درجات السلم في وقار ، دون أن ينبس بكلمة ، فرشقه المعلم بنظرة ساخرة وهو يقول :
- آه .

فلما رأى عثمان الملقب بالموت أن المعلم يخصه بانتباهه قال يسأل في رصانة :

- فماذا نعمل ؟

فأجابه ماحي بوعنان قائلا :

- نستدعي رجال الشرطة .

فدمدم باصمقالي يقول في ركنه المظلم :

- يا ليت يارب .

واصطنع عثمان هيئة النادم التائب وعاد الى نوله .

وهذا احتياج الحائكين شيئا بعد شيء . وفيما كان المصنع يستأنف العمل ، استرد الجو ما يشيع فيه من حزن وتسليم . لا يالف المرء بمثل هذه السهولة أن يضحك .

ذهب عمر الى المقهى يلحق بعكاشة ، على عادته فى كل يوم من أيام
الاحد . كانت الساعة فى نحو العاشرة من الصباح . ان رفاقا من
السحاب تمتد فوق المدينة . وأوراق الاشجار التى تنبجس من بينها
البيوت العالية ، تلفها غلالة من أنسام شهباء شفافة ، تجل فيها
المآذن وأشجار السرو . والشمس تظهر من حين الى حين ، فاذا بخار
مضى يحف بكل شئ من الاشياء على صورة هالة . انه نهار مرهف
طيب .

الناس والعربات والبهايم تمضى فى تيارات شتى . جلاليب خشنة
تحاذى قمصان بقالين . باعة ذوولحى مصفغة يسرون بخطوات صغيرة
وهم يرجحون أذرعهم . المقاهى طافحة الى الشوارع .
وهذه هى المدينة الواطئة . ان جمهور الناس يجرى هنا قاتما
كالقطران . ودخل عمر المقهى ، فوجد عكاشة جالسا وحده فى ركنه
الاثير . قال له وهو يصل اليه مباغطة :

- الله أعلم فيم تفكر .

فمر عكاشة بيديه على وجهه فى بطاء .
وأردف عمر يقول :

- عنظرك اليوم غريب كل الغرابة . أتراك قد وقع لك شئ ؟
فرنا اليه عكاشة . ان فى عينيه من الضجر ما ارتبك له عمر .
وقال عكاشة معترفا :

- لقد استبد بى الامر فى هذا اليوم دفعة واحدة . وأسند رأسيه
الى يده :

- آن لى أن اذهب . لا أطيق بعد الآن بقاء .

فخطر ببال عمر أن امورا كثيرة ستسهل يوم يسافر عكاشة .
لقد اكتشف الصبى أن هذا الحائك لم يخلق للتحدى والمشاجرة .
وآله أن يرى هذه القوة مذلة مغلوبة على أمرها .

- أترانا بلغنا هذا المبلغ كله من غربة بعضنا عن بعض ؟

فلم يفهم عمر ماقاله عكاشة .
وردد عكاشة يسأل :

- مارايك ، هه ؟
- ماتقوله صحيح .
- هل اقول في بعض الاحيان مالىس بصحيح ؟
- وأظلمت عينا عكاشة . كان عمر دهنا . وأضاف عكاشة يقول بصوت ران عليه الحزن :
- ليس الامر أمر تليفقات .
- ثم أردف يقول وقد أضاء وجهه في هذه اللحظة بابتسامة طيبة :
- لا ، ماكان للناس أن يصيروا الى ماصاروا اليه لولا انهم أوذوا اذى كبيرا .
- ثم مال على عمر ، وهمس يقول :
- لقد اهين شعبنا كثيرا ... وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل وخيم الصمت على دكان الشواء . وانقضت لحظة طويلة . ثم عاد عكاشة الى فكرته كما يعود المريض الى الجرح الذي يؤلمه .
- لم أعد أطيق البقاء .
- وتنهذ ، ثم التفت نصف التفاتة الى عمر ، وعاد يؤكد مرة أخرى :
- لم أعد أطيق البقاء
- ورجع الى النقطة التي تركها من سلسلة تفكيره ، فأكمل يقول :
- لقد أصبح شعبنا شديد الاحساس ، شديد الاحساس بالآلمه ، بالاهانات التي تحملها في الحاضر والماضي ... أصبح شديد الاحساس الى حد يصعب ادراكه .
- شعر الفتى مرة أخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول ، وركود الاشياء .
- واصبح شعبنا أيضا شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة . لاشك أن هذا كله كان موجودا في الماضي . ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفق في أى يوم مضى . فما الذي سيخرج من ذلك ؟ أرجو أن يخرج منه بخير ...

قال الاحمر لعكاشة بلهجة كان يعتقد انها لاشك مفحمة :
 - اراك تتحدث دائما عنا ، فهلا عرفت على الاقل ما قيمتنا ؟ هل
 تعلم ما الذى تقدر على فعله ، وما يمكن ان نقترفه من شرور ؟
 قال ذلك وهو يلح على هذه الكلمات الاخيرة بنظرة مراوغة .
 فأجابه عكاشة :

- نحن كسائر بنى البشر ، قيمتنا كقيمة غيرنا من الناس سواء
 بسواء .

ثم اضاف بعد لحظة من تفكير :
 - لسنا شرا من غيرنا ، ولا خيرا من غيرنا ... كل ما فى الامر
 اننا اشقى من غيرنا قليلا .
 - كذبت . ان شيطاننا يختفى فى نفس كل منا . يبدو علينا اننا
 كسائر الناس ، لكننا لسنا كسائر الناس . ونحن جميعا نرفض ان
 نسلم بذلك . اننا نتكلم ونعيش ونعمل خافضى الرعوس ، ولكننا
 لانتظر الا سنوح الفرصة المواتية لنقارف ما نستطيع ان نقارفه
 من شر .

قال حمدوش ذلك وفى ارتعاش صوته حدة لاتبشر بخير ، واطاف :
 - اننا لانتورع عن شيء ...
 - فى رايك اذن انه ليس فى بلادنا الا اناس خطرون . اناس ينبغي
 ان يقيدوا بالسلاسل .
 - انا من هذا على يقين .

فضحك عكاشة ضحكة قصيرة . وقال :
 - سيتبدل الامر .
 - انت وحفنة من امثالك الحالمين وحدكم تؤمنون بذلك . لا ،
 لا ، ما من احد ينطلى عليه كلامكم منذ اخذتم ترددونه .
 وكان حمدوش لا يستطيع ان يستقر فى مكانه ولا ان يكبح جماح
 عصبته . قال :

- هلا تفضلت فذكرت لى كيف سيتبدل الحال ؟
 - ما من احد يستطيع ان يتنبأ كيف ستجرى الامور على وجه
 الدقة .

فصمت حمدوش لحظة ، ثم صاح يقول على حين فجأة :
 - لا ، لست أوافق .
 قال هذا ومر بلسانه على شفثيه بسرعة ، ثم حرك يده في الهواء
 كأنما هو قد غص بكلمة .
 - جميع الذين أراهم يبددون جهودهم ويرهقون أنفسهم في الكلام
 الطيب ، لا يزيدون على أن ييصقوا في الهواء . أنهم يخدعون أنفسهم
 ويخدعوننا . ولكن كلامهم لن يحرك اصفر حصاة من حصي الطريق ،
 فإن زعموا غير ذلك فهم كاذبون .
 وطرف بعينه ساخرا .
 - مانحن في حاجة اليه ، يا أخى ، إنما هو نوع آخر من الرجال .
 وذلك صدره في بطء وارتياح .
 - أنظر اليهم في الشارع ، اخوتك هؤلاء . ما الذى تنتظره من
 هذا الجيش من الاشباح الساعبة ؟
 نزع عكاشة الوند الذى يبقى من تحت النسيج على تباعد
 الحاشيتين ، وانتصب وهو يقول :
 - لابد للمرء من كثير من قوة النفس حتى يقبل هذه الحياة على
 أنها خير ، وحتى ينسى الآلام التى تجثم على صدورنا .
 فاعترض حمدوش صائحا :
 - أنت انسان يحيا على حلم .
 وحين صاح بذلك كان كمن يريد أن يخرج محدثه من سبات
 عميق . قابتسم عكاشة . حتى اذا ادار اسطوانة النول مع مساعده
 حين طرف وأعاد غرس الوند في مكانه ، أشعل عود ثقاب وقرب
 شعلته الصغيرة المتموجة من عقب السجارة الذى كان قابضا عليه
 يشفثيه ، وهو يحنى رأسه الى جانب . أجاب :
 - نحن في حاجة الى هذا الحلم .
 - لينا في حاجة اليه أبدا . وإنما نحن في حاجة الى الحقيقة ،
 الى الحقيقة عارية كل العرى .
 وقبض حمدوش يديه ، ورفع ذراعيه الى السماء وأخذ يحركهما
 في الهواء ، ثم ضرب نوله وهو يقول معترضا بصوت مختلق :
 - هذا كله ليس له فى رأى أية قيمة .
 وعندئذ أخذ شول يغنى بصوت عال :
 الليل جاء فأين تقضى الليل ؟
 الليل جاء فأين تقضى الليل ؟

أصابه ثبوت عن سنجارة فهي تنبش العلية مرثشة مجرمة
فتمزقها . ودمدم يقول :

- انتهى ، انتهى ، قررت ، قررت . سأذهب . سامضي إلى
بعيد ، إلى بعيد ، حيث لا يعرف أحد من أنا .
فهتف عمر يقول :

- لماذا ؟ ماذا تأمل أن تجد ؟

- ماذا ... ماذا أمل أن أجد ؟

وأخذ عكاشة يفكر :

- ألا تفهم ها .. ها .. قل : أتريد أن تجيء معي ، أم أنت
لا تريد ؟

- لا أريد .

لم يجب عكاشة بشيء . لم يدهشه هذا الرفض . كان يتوقعه
ولعله كان يتمناه .

ثم استأنف يقول بلهجة تشبه أن تكون لهجة دعاء :

- لم أعد أطيق البقاء . كفاني مالميت !

ان عياء لا سبيل إلى وصفه كان يترقرق في كلماته هذه . وصفق
بيديه وأمر قذحين آخرين من الشاي .

- لنشرب معا مرة أخرى . وابتسم . وابتسم عمر أيضا .
قال عكاشة :

- هناك شيء لا أفهمه ، هو أن مفارقتك ستؤلمني .

ونظر إلى الصبي في انشراح .

- حقا .. ستؤلمني مفارقتك .

وجاء الساقى ، فوضعت قذحين من الشاي الساخن ، ورفع
القذحين الخاليين . فما أن أدار ظهره ، حتى تابع عكاشة يقول :

- الحياة هنا رمل ، يملأ المرء يديه فلا يقبض على شيء .

ورشف رشفة من الشاي ، ثم رشف رشفة أخرى ، وهو خافض
رأسه ، لكنه يرقب عمر من فوق حافة القدر .

- ربما كان هذا السفر آخر حظ لي .

واضاف بصوت اخفت :
 - وقد لا يحقق لي هذا السفر السعادة ، غير أنني بما أشعر إذا
 سافرت بأنني أقل تناقضا مع نفسي .
 وابتسم ابتسامة صامتة ، متقلصة بعض التقلص .
 - نفس حزينة ، حزينة وقلقة ، قلقة قلقا رهيبا .
 وعاد الصمت يخيم بين الرقيقين .
 وابتسم عكاشة بعد لحظة ابتسامة وائية ، وقال :
 - سوف أنتهي إلى احتقار جميع من حولي إذا أنا لم ..
 وحرك ذراعه بإشارة في الهواء كأنما هو يطرد أشباحا أمامه .

كانت امسية الصيف تنثر جوا ورديا اشهب . وقد اشتعلت
 واجهات المخازن ، غير أن الليل لا يزال بعيدا . أن الشوارع تزدهم
 بكسل كبير .

ظل عمر يطوف على غير هدى ، فارغ الرأس . انه ليس بالحزين ،
 ولكنه ممزق القلب . كان يسير في حذر . لقد ودع عكاشة منذ قليل .
 ووصل طوافه إلى السور الذي يطل على السهل . أخذ يتأمل
 الحقول والطرق والأخاديد ، أخذ يتأمل هذا المنظر الذي يحيط به
 الظلام . كانت الأرض تغور في العتمة في رفق وهدوء . تنسم تلك
 الرائحة اللانهائية القوية ، رائحة الريف . ثم مالبت أن أصبح المنظر
 الذي أمامه عالما أجرد ساكنا : لقد هبط الليل . أن طمانينة آتية من
 الأعماق تملأ قلب عمر .

وعاد إلى الجمهور الذي تعج به الشوارع . انه يحس بحاجة إلى
 أن يحيط به وأن يحمله تيار هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم كثيرا ،
 ولكن وجودهم ينعشه .

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالكاليل على طول
 الأرصفة ، فهي تضيء سلا لا تناسب فيها ألوان قوية مشبهة .

المدينة من الصيف في سكر . غير أن السطوع القوي والدفع المتلازم
 اللذين كانا في النهار ، قد أعقبتهما في الليل أنسام طرية .

وكانت نداءات باعة « الدندرمة » أبرز كل ما في ذلك الفسق من حركة
 ونشاط . واخذت أولى النجوم تظهر في السماء . خبل إلى عمر أن هذه
 الوجوه التي تلفها الظلال تعكس ما بنفسه من حماسة . أن هؤلاء الناس
 يشبهونه . أنهم ، هم أيضا ، ينتظرون يقينا لا يتصوره خيالهم بعد أن
 قضوا أياما وأياما بغير أمل .

— يجب تبسيط الأمور ، ينبغي لجميع الفروق بين البشر أن تزول ، والذين يعارضون هذا يجب سحقهم . نعم ، لا فروق .
قال حمدوش ذلك بصوت يقرقع كالسوط . قدمدم عباس صباغ . ان عباس صباغ لا يريد حتما أن يخوض في مناقشة مع انسان مهتاج كحمدوش . ومع ذلك قال يدافع عن نفسه كأنه هو المتهم :

— طيب .. هذا رأيي أنا أيضا .
كذبت . أنت تعبد كل قديم . ولست أول من أراه كذلك . انكم جميعا سواء .
قال عباس :

— اذن لاتحاول أنت أيضا أن تجعل لنفسك ميزة .
— كل من يريد أن يجعل لنفسه ميزة يجب أن يباد .
تحرك عباس تحرك من ضاق ذرعا ، ولكنه لم يجب .
وكان الحائكون يعملون في همة ونشاط ، فلا هم يسلمون ولا هم يعارضون . وكان بعضهم يتوقفون عن العمل في بعض اللحظات ، فيسخررون بالمتيجح ثم يستأنفون عملهم
قال عباس أخيرا :

— ان الله هو الذي امرنا أن نعيش على هذا النحو ..
فحدجه حمدوش بنظرة غريبة . ثم قال له :
— هب الله هو الذي أمر بهذا . أفأنتم تفعلون كل ما أمر به الله ؟
ومرة أخرى أصم عباس صباغ اذنيه . وكان عمر يصفى الى هذا الكلام كله مشدوها . كان يخيل اليه ان هذا الذي يتكلم ليس حمدوش وأخيرا قال شول سائلا :

— وقيم تلقى علينا هذا الهذر كله ؟

— من أجل أن تفهموا .

— من أجل أن نفهم ؟

وهز شول كتفيه .

— كان البشر دائما يضطربون ويلتهم بعضهم بعضا .

قال ذلك ثم أضاف :

— فاتما مرد الشر كله الى حماقتهم . افهم هذا أخيرا .
صمت حمدوش .

وحين آن وقت الخروج من الورشة ، سأل عمر :

— لماذا كنت حادا تلك الحدة كلها ؟

فمط حمدوش شففيه ، ولم يجبه . ثم قال :

— ياله من سجن ! هيا بنا نخرج من هذا السجن .

وخرجا من الكهف ، وذهب كلاهما الى مقهى من مقاهى . يليق .
رغم أن أحدا منهما لم يكن ينوى ذلك ، فلما جلسا مديرين وجهيهما
الى الشوارع الصاحب الاغبر ، ظلا صامتين لايقولان شيئا . هما الآن
في ساعة متأخرة من المساء . ظلال البيوت تزداد طولاً على أرض
الشارع . أن شيئاً مرهقا يجثم على صدر هذه الامسية من أماسي
آب . وكان حمدوش يتفرس في كل مايجرى ، بشراهة ، وقد صالبا
ذراعيه على صدره .

قال بلهجة غير مألوفة فيه :

— ان المرء ليخجل من نفسه في بعض الاحيان .

فالتفت اليه عمر على مهل . فتابع حمدوش يقول .

— الصبر شيء لا أستطيع أن افهمه . اننى أخذ في الارتعاش

والصراخ لأتفه سبب من الاسباب .

كان حمدوش يتكلم محمق العينين ، ثم اذا به يضحك فجأة .

— هل تريد أن أفضي اليك بأمر ؟ اننى أشعر أحيانا كأننى وحيد

في هذا العالم ، وكأنه لا وجود لأحد من الاحياء غيى ، فأصبح عندئذ

إنسانا لا يطاق ، اننى أضيق ذرعاً بنفسى . لعل هذا يرجع الى

مرض بى .

قال ذلك ونظر الى رفيقه من جانب .

ثم تابع يقول بلهجة هي بين المرح والجد ، لاتدرى الآن هيئة عمر

قد طمأنته أم لان مزاجه في ذلك المساء كان يدفعه الى أن يفضى بذات

نفسه أكثر مما عهد فيه .

— على كل حال ، هناك شيء ليس على مايرام ، لا أدري أين .

لماذا أنت صامت ؟

— أفكر فيما تقول .

وكان عمر يفكر حقاً في أقوال الاحمر ، فانصبت عليه نظرات

حمدوش قلقة قلقاً مبهما . قال له عمر :

— انى لا اصدقك .

— لاتصدقنى ؟ انت على صواب .

الحق ان عمر لا يستطيع ان يقول ما الذى كان يشعر به اثناء اصفائه الى حمدوش وهو يفضي بذات نفسه . لقد كان يحس بضباب كثيف يجعل ذهنه .

ان طيوف المارة فى الشارع تسود وتستحيل شيئا بعد شيء الى ظلال تتحرك . فقد هبط الليل .

فلما فرغ عمر وحمدوش كاسيهما ، نهضا ، ومضيا يمشيان فى المدينة .

كان الاحمر قد طلب الى عمر ان يوصله الى بابه ، فوافق عمر على ذلك .

— طيب يا حمدوش .. هيك قتلت واحدا ، بل هيك قتلت عددا .. فما تصنع بعد ؟

— ما ينبغي ان تفكر الان فيما سيحدث بعد . كيف لاتفهم هذا ؟ ذلك امر تفكر فيه بعد . اما الان فيجب ان نعمل .

وانتفخت شفتا الاحمر واتسع منخراه . ثم انفجر صوته على حين فجأة حارا خافتا يقول :

— يجب ان تكون رهيبين ، لا بمظهرنا فحسب ، بل بطبعنا ايضا . يجب ان نكون رهيبين ويستوى بعد ذلك ان نغلب او نغلب .

قال ذلك وقد شحب وجهه ، ولكنه اردف يقول وقد هدا قليلا :

— يجب ان تنهى هذا الطراز من الحياة التى عشناها الى الان . كان عمر لا يستطيع ان يحول نظره عن رفيقه ، ولا ان يقف الانفعال الذى استبد به . وتناول عمر يد الحائك ، فهزها وهو يقول له :

— انت ايضا انسان يعيش على حلم . ولكن حمدوش كان قد بلغ من الاضراب انه لم يسمع كلماته .

وما لبث عمر ان تركه . وفيما هو يسير فى الظلام ، كان يترامى اليه صوت الاحمر صلفا وساخرا سخرا غريبا فى آن واحد :

— يجب ان نفعل شيئا ، ليس يجدينا الا ان نفعل شيئا . كانت الشموارع تخلص شيئا بعد شيء ، وكان قلب عمر ، كهذه الشموارع يتسع للخوف والقلق أكثر فأكثر . وقال لنفسه فجأة : ان حريته

ملك له ، وان عليه ان يتصرف فيها على النحو الذى تمليه عليه ارادته .

بعد أن سافر عكاشة ، اختفى حمزة أيضا اختفاء لم يعرف سره احد . وقد انقطع حمدوش عن المجيء الى الورشة منذ يومين ، فقرر عمر ، في صباح هذا الاحد ، أن يذهب الى بيته ليراه . أن قلعا لا يفهم قد قام في نفس عمر . أن عمر لا يعرف لماذا استبد به هذا القلق . انه لا يستطيع أن يقول لماذا سبب له حمدوش هذا الهم المبالغ . لم يكن وضع الاحمر وضعاً بسيطاً ، ولا كانت أقواله كذلك . انه يجذب وينفر ويشير ويجرح . غير أنه كان ، بحكم السن ، اقرب هؤلاء الحائكين الى قلب عمر . وبعد أن سافر عكاشة ، ازداد عمر اقتراباً منه حتى لقد أصبح له عليه نوع من التأثير يشبه السحر . ان قوة جاذبية لاتعليل لها كانت تحمل عمر الى السعى الى صحبته . لاشك أن في حمدوش شيئاً متوحشاً لم يروض ولم يستأنس .

الصيف يسطع على المدينة ، والهواء أنسام خفيفة ، والسماء السكرى تسكب دفناً باعراً . ذهب عمر الى تلك الاحياء الدنيا التي يضطط فيها المرء بغير انقطاع ويصدم وتحمله أمواج المارة . ان في كل ركن من الاركان متسولين يئنون ، فهم تارة فرادي وتارة جماعات ، وتارة ضائعون في رحمة الناس ، ولكنك تعرفهم دائماً من مشيتهم المتلمسة . من ذا الذي كان يسمع ضراعاتهم ؟ أن صوته يفور في الجلبة فيما يصل الى الاسماع . غير أنهم يصرون على الصراخ في غير بأس .

وفيما كان عمر عند تقاطع شارعين لمح شرطياً وامراً يحيط بهما عدد من الاشخاص .

كان الشرطى يقول للمرأة ، بصوت يحاول أن يجعله مقنعاً :
- خير لك أن تعودى الى بيتك . عودى الى بيتك .

وكانت المرأة ترتعش ، ويزداد كلامها حدة شيئاً بعد شيء .

- أنهم جميعاً سواء حين يكون الامر امر اقتياد رجالنا الى السجن . لقد اعتقل زوجى هو وواحد آخر .. والان يطلب الى أن أعود الى بيتى .

صرخ الشرطى يقول :

- عودى الى بيتك . وانتم ، هيا أفسحوا الطريق .
فهدأت المرأة روعها ولكنها صمدت ولم تذهب . وظلت تتكلم ،
سافرة عن وجهها أمام جميع الرجال ، وهى تتحدث الى الجمهور
الذى كان يتجمع من تلقاء نفسه استجابة لنداء الشقاء .
وأزاحت المرأة حايكها ، وأخرجت يدها تشير بها الى الشرطى
وتقول :

- هذا الرجل يزعم انه واحد منا ، يزعم انه أخ من اخوتنا ، فيا
أيها الناس الطيبون هل يستطيع أحد مما يلبسون هذا اللباس
العسكرى أن يظل يزعم لنفسه انه واحد منا ، انه أخ من اخوتنا ؟
فتقدم الشرطى وعاد يقول بصوت رجل من رجال السلطة :

- ابتعدوا .. انكم تسدون الطريق العام .
فتفرق الناس ، وأخلوا المكان ، فما عاد الشرطى الى وراء حتى
أطبق السد البشرى مرة أخرى .
فلما رأى الشرطى ذلك رجع اليهم وقد جحظت عيناه ، وأخذ
يحرك يديه قائلا :

- انقضت ساعة وأنا احاول أن أردكم الى الصواب . اما من سبيل
الى ردعكم ؟

فلم يتحرك أحد من مكانه . وكان الحشد يضم من النساء المحجبات
والاطفال مثلما يضم من الرجال . ان واحدا من هؤلاء الرجال ، وهو
قروى فيما تدل عليه هيئته ، كان مستندا الى عصا ، يراقب في
هدوء ، وهو على هذا الوضع ، ذهب الشرطى واياه ، فتقدم منه
الشرطى وقال :

- ماذا تعمل هنا ؟

فنظر الرجل الى الآخرين وقد ظهرت في وجهه علامات الدهشة ،
ولكنه لم يتحرك من مكانه ، فعاد الشرطى يسأله :

- ماذا تعمل هنا ؟ لعلك تشتهى أن أرمى بك فى السجن ؟

- أرم بى فى السجن أن شئت . أنا أنظر .
قصمت الشرطى .

كان القروى ، ذو الوجه المعبر والهيئة الخازمة ، قد وقف مباعدا
قدميه ، ولا تزال يده وراء ظهره .
سأله الشرطى :

- تريد أن أرمى بك فى السجن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

وكانت المرأة تتكلم عن شقائقها الى المحتشدين بلهجة الحديث العادى
المألوف .

فعاد الشرطى يسأل :

— مالكم تسمرتم هنا ؟ لماذا لا تتصرفون ؟

قال الرجل الذى كان يبدو عليه أنه قروى :

— نحن جميعا أخوة .

فقال الشرطى يوافقه :

— صحيح .

فهتف صوت بعيد يقول :

— هه ! أنه يتذكر أصله !

فقال الشرطى متدمرا :

— يوشك من يسمع كلامك أن يظن أننا أبالسة .

فأجابته الرجل :

— أنت شرطى .

فقال الشرطى :

— طبعاً أنا شرطى .

وأضاف وهو يتجه بكلامه الى الجمهور :

— لا بد لى من القيام بواجبى .

فتدخل أحدهم يقول :

— دعنى اذكر لك هذا الامر ذكر أخ لآخ : أن أخا طيبا مثلك هو

الذى شق رأسى ذات يوم . لماذا ؟ لأن الوقت المحدد للبيعة المتجولين

كان قد انقضى ولم أنصرف بعد مع خضرى .

— ماذا بك حتى تقول هذا الكلام ؟ اننى لأحسن صنعا اذا هويت

عليك بيدي . هيا اذهبوا . يجب ألا يعرقل المرور .

وكان الحشد قد ازداد كثافة . والناس لا يزالون فى امكنتهم

ينظرون الى المرأة وينصتون لحديثها .

قال الشرطى :

— وبعد ؟ ما بكم جميعا ، هه ؟

فاذا بصمت كصمت الموت يخيم ، بعد هذه الكلمات ، على الحشد

المظلم الذى لا صدع فيه . وعندئذ سأل الشرطى بصوت خافت :

— ماذا تريدون ؟ هذا مورد رزقى ، أن لى ثمانية أطفال . . فهل

تقوموننى ؟

فقال القروى بعد لحظات :

— دعوه . اذهبوا فى سلام .

فاتعد بعضهم يخلون السبيل للآخرين . وظهرت فى وجه الشرطى

ابتسامة شكر .

بعد الشوارع المزدحمة والجمهور الصاخب ، يظهر الصمت هذه على حين فجأة . يا للهدوء المبالغت في هذه الأزقة الضيقة المتعرجة ! الشمس تلهو على البيوت الشائبة الهرمة التي يرتفع بعضها فوق بعض ، والهواء الشكس يلهو تحت كشش العشب التي تزين بریشها ظاهر الجدران . وليس للجدران من منفذ يطل على الخارج غير المداخل العميقة التي يدلف إليها الداخل على درجة أو درجتين في أكثر الأحيان . والابواب ذات المقارع ثقيلة ، فلولا انها تظل فاعرة في الليل والنهار على السواء لما أمكن الوصول الى داخل البيت . وكان حياة السكان (الأحاديث ، وأصوات النساء ، وأيدي الهاون التي تدوى كالأجراس) انما تطل على عالم آخر .

تلبث عمر عند بناية قديمة فسيمة ، فاجتاز مدخلها الكبير ، ثم دفع بابا صغيرا معلقا في زاوية على مسافة ثلاث درجات من الأرض ، وأخذ يصعد السلم الحلزوني الضيق ، المظلم جدا ، الذي أفضى به الى مسكن صديقه . فلما صار عند العتبة ، صاح يسأل :
— هل هنا أحد ؟

فجاء الجواب :

— هه . هذا أنت ؟ ادخل ياسيدي ادخل !

كان الصوت هو صوت حمدوش المازح . فما ان وضع الفتي قدمه في الغرفة حتى بهرته الشمس التي كانت تدخل اليها من نافذتين . كان حمدوش مستلقيا على فراش مسطح كالرغيف ، وهو مرتد ثيابه ، غير انه عارى القدمين ، فلما رأى صديقه نهض وفي عينيه ابتسامة ، وأخذ يمس قدميه في تعليه .

الغرفة العارية كل العري مبيضة الجدران . وفوق فراش القش يتدلى معطف مهترى لا لون له ، معلق بمسمار . وفي ركن من الغرفة ينام صندوق خشبي على جنبه ، كاشفا عن سخان صغير يشتمل على الكحول ، وابريق منبعج لغلى الشاي ، وزجاجة ، وفنجان وصحن . وعلى الكرسي ترقد باقة طرية من نبات النعناع في قدح ماء . وليس في الغرفة شيء آخر .

كان قد نهض حمدوش . قال :

- جيد هذا المسكن .

ثم أخذ يتمطى ، وأضاف بصوت فيه تشاؤم :

- هو جيد في الصيف خاصة . أما في الشتاء ... بررر ..

وطفق بهيء الشاي . كان عمر الذي لم يفتح فمه بكلمة ، قد اقترب من إحدى النافذتين ، وأخذ ينظر الى الخارج : ان المرء لا يرى الا السطوح المجاورة ، فليس البيت عاليا . أما السماء ، فما كان اروع صفاءها في ذلك الصباح !

غاب حمدوش وعاد بعد دقائق يحمل بيده خبزا فرنسيا وضعه على الكرسي ، ثم مضى يرمى ماء الكأس من النافذة ، وكان اليريق الشاي قد أخذ يغلى ، فصب في الكأس شيئا من السائل الاحمر وذاقه ، ثم أعاده الى اليريق ، وأخذ يحرك اليريق تحريكا قويا وهو يشتم ويسب :

- كفى سفالة . كفى رذالة ...

وعاد يصب الشاي في الكأس حتى ملأها ، فقدم الكأس الى عمر ، اما لنفسه فقد ملأ الفئجان الذي كان في الصندوق .

- هل الشاي طيب ؟

وكانت شفتا عمر على الكأس ، فهز رأسه يؤكد أنه طيب ، فمر حمدوش بذلك : وانسم ابتسامة مشرقة .

- لو قلت غير ذلك لسكنت اليريق كله على رأسك .

قال ذلك وقدم للصبي قطعة من الخبز ، فرفض الصبي أن يأخذها رغم الحاج الاحمر .

- البست جائعا ؟

- لا .

واستمر يشربان الشاي . ان حمدوش يأكل مع الشاي خبزا . والاثنان صامتان لا يقولان شيئا ، ولكن كلا منهما يرقب ما عسى أن يقول صاحبه .

رشف حمدوش رشفة صاخبة من الشاي وراء لقمة الخبز التي دسها في فمه بشراهة جائع ، ثم دمدم بقول :

- انك لست بالفتى النافه ، ولكن خيالك جامع في بعض الاحيان .

- كيف ؟

- لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ، ولكنني أعرفه . انك تسلك سلوكا من يحس أن الناس ضائعون وأنه لم يخلق على هذه الأرض الا

ليشاركهم الالمهم .
قال حمدوش ذلك ونظر الى جانب كانه يفكر في شيء ما . ثم اضاف :
- كذلك كان عكاشة ...

- هل سمعته يقول شيئا عني ؟
فاجاب حمدوش بغير تردد :
- كان يعتقد انك انسان عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره .
وانك لا تزال تتالم اكثر من غيرك لانك ارحف احساسا من غيرك
ثم قال وقد علت نبرته فجأة :
- وعكاشة ايضا كان يتالم للآخرين اكثر مما يسالونه ان يتالم لهم .
كان يحب ان يواسي . والمواسون خادعون .
واعترف يقول بصراحته الحسنة !
- وطبعاً لم يمكن تصديقه .
وعاد يمزج الخبز ويشرب الشاي .
- لم يكن يعاشر النساء . كان طاهراً . وكان يحب النظام . كان
طيباً .. هذا اسراف .

ومن العجيب ان حمدوش كان يتحاشى اثناء كلامه ان ينظر الى
عمر ، غير انه ظل مع ذلك يراقبه بطرف عينه . استغرب عمر انه ظل
طوال المدة الماضية لا يلاحظ ان للأحمر طبيعة ثانية بخفيها ، واحس
ان حديثه اليه على افراد يكشف له الآن عن هذه الطبيعة .

ونسى مع ذلك ان يسأله عن سبب غيابه خلال الايام الاخيرة .
ولكن حمدوش تابع يقول :

- ليس الامر امر شفقة على الناس . ان الناس لا يسألونك ان
ترثي لحالهم وأن تشفق عليهم . أنت تريد لهم الخير ، ولكنهم الى
المدالة انما هم ظالمون .

صعق عمر . وقرب حمدوش وجهه من الفتى . وقال مؤكداً في اقتناع :
- ميل سيئ . ثم تصور النتيجة التي يجنونها من هذا . ان هذا
لا يرفع عنهم ذرة من البؤس الذي هم فيه . والا لكان الامر سهلاً
مفرطاً في السهولة .

- أنت تكره الناس .

- بل أريد لهم أن يتعلموا كيف لا ينشدون الاسعاده واحده . الحرية
- هناك السعادة بالحياة . بالحياة . . . بمجرد الحياة .
- كلام .

- ولكن جميع الناس يرغبون في هذه السعادة .
- كل هذا لا روح فيه . وإنما ينبغي للإنسان أن يتعلم الشعور بالآخرة من جديد . أما الظلمة إلى الحياة فإنه يعود فينشأ بعد ذلك
- ما عليك إلا أن تفتح عينيك وترى ...
- فانفجر حمدوش ضاحكا .
- ثم قال وهو يضرب الجدار بقبضة يده :
- العالم قاس . وجميع الذين يتطلعون إلى أفكار رفيعة كريمة سيتحطمون على صخرته . وما ينبغي أن تعجب إذا نحن رأينا الأرهاق يدب فينا من قبل أن نبدأ النضال .
- نفذت أقوال الأحمر في قلب عمر نقاذ السكين .
- وأضاف الأحمر يقول :
- ولا تنس بعد ذلك أن اخوتنا أوتوا القدرة على اعتماد كل شيء ، وأن مبادئهم نفسها أصبحت لا تؤثر في نفوسهم
- لا أدري ... ولكنني أرى أن الأصح من ذلك أن يقال أنهم خجلون منها ، فهم لا يتحدثون عنها . أنهم يخفون آلامهم .
- لا ... هذا غير صحيح . أن قلوبهم ميتة .
- يجب إيقاظ قلوبهم من سباتها .
- ما يجب إنما هو : الكره ، القسوة .
- هناك أناس يساعدون غيرهم على أن يصبحوا خيرا مما كانوا .
- لعلك ستصير من هؤلاء .
- ربما صرت منهم . لم لا ؟
- ومرة أخرى أخذ حمدوش يضحك ، فحمد عمر .
- إذا أردت أن تجر الناس ، كان عليك أن لاتدع لقلبك أن يرق لاناتهم . أنك إذا اتفق أن أوليتهم صداقتك ، لم يخشوك .
- أنت تشيط العزيمة .
- الأمر كذلك ، فلا أنا ولا أنت لنا فيه حيلة . منذ وجدت في هذا العالم أسمع أناسا يدعون إلى الرحمة وحب البشر وما زلت إلى الآن أسمعهم ، إلى هؤلاء الواعظين ... ولكنني لا أرى أن البشرية تحسنت أحوالهم .
- كان عمر يصفي صامتا . لقد بدأ منذ الآن يئأس من حمدوش . ولما خرج من عنده ، أحس بقلبه يفيض ضعفا . وقد سأله : وهو يودعه ، عن سبب انقطاعه عن العمل ، فأجابه الأحمر بقوله :
- لم أشأ أن أذهب .

ما ان اخذ المصنع يتحرك في ذلك الصباح حتى استأنف حمدوش انتقاداته المرة . قال :

- لا يصدق المرء مدى ما تنصفون به من جبن ، حتى ليتساعل اهو امام افراد يرغبون حقا في شيء ام هو امام افراد لا يعنيه حتى مصيرهم .

واخذ يكيل الهجاء لرفاقه ، ويضطرب ، ويشتتم . كانت الالفاظ تتشبه بحلقه وأسنانه ولسانه ، ولا تريد أن تتركها . قال شول مازحا :

- أرنا أولا ما أنت قادر على أن تفعله ، ثم ننظر في الامر . قال عمر لنفسه . « اذا أراد المرء ان يجتذب الى صفه الآخرين ، كان عليه ألا يغرقهم بوابل من اللوم والتقريع . انهم يفهمون أن حياتهم حياة سيئة فما هم بالعميان ، وانهم ليلومون أنفسهم بما فيه الكفاية ، وانما ينبغي أن يبرهن لهم على صداقته وان يقدم لهم شرحا مقبولا » .

وتذكر سراج ، وتذكر عمالا آخرين غير سراج . انه يدرك الآن ان لغتهم يمكن ان تبدو لغة اجنبية في نظر حمدوش . .

أما الأحمر فهو يفهم زملاءه : ذلك كل ما كان يستطيعه ، ذلك كل ما كان يجيده . لم يحاول مرة واحدة أن يشهد أزرهم وان ينعشهم بكلمات سمحة كريمة . فكلما حاول اقناعهم ازدادوا برما بأقواله . وكان يمكن أن يصلوا من ذلك الى اعتباره ألد أعدائهم لولا أنهم يرون فيه « أراجوزا » وهب القدرة على الكلام .

ولم تزد الحال إلا سوءا يوما بعد يوم . أصبح حمدوش يسترسل في أحاديث قائمة مفككة ، ويتكلم بالفاظ موجزة . انه ما ينسى يحل ازرار مشرته ثم يعقدها ويهتز ويضطرب كمن يريد أن يتخلص من حمل ثقيل . وان في نظره أثناء ذلك من الألم والزيف ما يولد في نفس عمر افجع التنبؤات .

قال ذات مرة وفي صوته سخر :

- معذرة . . ليست المسألة ان نشفق على الشعب أو لانشفق

عليه . انى لا انظر الى الناس فأرى على وجه عام انه ليس هناك شعب .
ليس هناك شعب حقيقى . ليس هناك شعب حين يجمع بعضهم كتلة
من الناس ثم يصيح بها قائلا : « أنتم الشعب ، الشعب الذى يصنع
كل شئ » ، ويعلم كل شئ » . هذا الشعب الذى يجتمع عندئذ ليس
« لا هراء » .

ثم تابع يقول خائفا رهيبا .
— الذل ، العبودية ، الخوف ، كل ذلك قد أفسدنا حتى النخاع ،
فأصبحنا لا نشبه البشر .
فقال له شول آمرا :
أخرس
فأجابه الأحمر بقوله :

— انت لا تريد ان تسمع كلامى لانه يفظك .
فما كان من شول الا أن قذفه بطلقات من هاجر القول .
فقا الأحمر عندئذ :
— هذا أنتم . اننى اعرف ما يحسن به من كان على شاكلتك من
الناس . وأحمر وعرق . وكان الحائكون يصـيخون اليه الان
أسماعهم بغير ضحك .

— انكم لا تنتظرون الا لحظة انقضاى ، غير انكم لا تنقضون الا حين
لا يكون هناك أحد يحول بينكم وبين ذلك . حتى اذا لم يكن هناك أحد
أخذتم تزارون حتى الموت . انكم تنكفون ثم تنكفون بأحقادكم ومذلاتكم
يأيها المهانون . غير انكم لا تفعلون فى أثناء ذلك شيئا يحميكم من
أولئك الذين يهينونكم . انكى تقبعون كالبق منتظرين أن يحميكم غيركم
حتى اذا جاء يوم اقتسام الغنيمة خرجتم من أحجاركم خروج
الحيوانات تجذبها رائحة جثة . انكم متى استطعتم ان تنتقموا فى
أمان ، أصبحتم كالبحوش الكواسر . ألا اننى لا اريد ان ارى أفواهكم
فى ذلك .

— حاذر ان تتجاوز الحدود ، فينتقموا منك فى ذات يوم .
قال جمدوش :

— من هم ؟
وأخذ يكيل الشتائم لزملائه الحائكين . ثم قال بصوت محتقن
بالاحتقار : اوضار . أن هذا الكهف شر من مجارى الاقدار ، أنه
العفن بعينه .

ثم ضرب بطرف سبابته السيجارة المحترق نصفها ، التي كان قد قدمها اليه عمر ، فطارت الى بعيد .

- آه ... ما أشد تفسخ المرء في هذا المكان ! ... اننى فى بعض الاحيان لا ادرى ما الذى يمكن ان أفعله ... يخيل الى فى بعض الاحيان اننى لا أتورع عن ان ارمى كل شئ فى الهواء .
كانت أمسية رائقة ، تهب عليها سمات دافئة ... أمسية يقطر خفية مثقلة بجو من الوقوف فى ختام مرحلة من السير . الناس يعودون الى بيوتهم . انهم يقطعون الشوارع وهم يحملون تحت الابطين خبزا أو مئونة . ان فى أحسن الوجوه تعبيرا حادا يرهفها .
وكان الشبان قد صمنا لا يقولان شيئا .
حمدوش يقول :

- آه ... ليت جميع هؤلاء الذين يمرون هناك كالسائرين فى نومهم . ليتهم يريدون ان يستيقظوا ...
وصافح عمر صديقه ، وغار فى الشوارع الضيقة المضاءة نصف اضاءة .

ونام فى تلك الليلة ، غير أن فكره لم ينم . كان فكره يكبب شلقة من تلك الشلل المشرجة المليئة بالعقد التي لا يرى المرء مثلها الا فى كابوس . وما لبث ان سمع صوتين يتحادثان ، هما صوته وصوت شخص آخر ، صوته وصوت ظل كبير يحمل انفاس المجهول . ومن عجب ان فى هذا الصوت نبرات تذكره بنبرات الاحمر . وأخذ الصوت يلهث . ان عمر لا يستطيع ان يفهم هذه الكلمات التي يقدفها ذلك الصوت فى الفضاء . وعندئذ تفجرت فى رأسه الحقيقة . « ان حمدوش يريد ان يعد العدة للقيام باغتيالات ، ويقتضينى بل يأمرنى أن اشارك فى ذلك » . وانقطع الخيط فجأة . واصبح عمر لا يسمع الظل . ولا مست جبينه ريح بيضاء من ريح السحر .

سارا فى ممر يصطف على جانبيه صفان من اشجار الجوز الهرمة ومن اشجار الدلب ، على حافة البركة الكبيرة . ان الاشجار التى اخذت تورق تشكل فوق راسيهما قبة من خضرة كثيفة مهتزة . فلما صارا فى منتصف الطريق جلسا على مقعد .. وكان المساء يوشك ان يهبط .

كانت عينا حمدوش تسطمان ببريق ما ينفك يزداد ، فربما كان مرد ذلك الى الساعة التى هما فيها من النهار . وادرك عمر من ارتجاف شفتيه ان به رغبة جامحة فى معالجة الموضوع الذى كان يشغل باله ، الا ان هناك حائلا يقف الكلمات على شفتيه . قال فجأة وهو يسحق بقدمه عقب سيجارة كان على الارض .

— مم تخاف حين اكلمك ؟ هه ؟ مم تخاف ؟ أنت تسيء الظن بى وتحترس منى ؟

فقال عمر ، وقد ادرك اخفى ما يجول فى خاطر رفيقه من افكار . — ما من أحد يخطر بباله ان يهدم أى شىء قبل ان يوقن من انه سيحل محله شيئا آخر افضل .

فنظر حمدوش الى الارض بين قدميه عابس الوجه . ثم رفع رأسه كمن عثر على فكرة فائته حتى ذلك الحين ، وقال :

— ولكن ليس من الشرف فى شىء ان تقول عن امر من الامور : « انا لا نويده » ثم نحن لا نفعل شيئا من اجل القضاء عليه . ليس من الشرف فى شىء ان نتشكى ، ثم نحن لا ..

ومرت فى تلك اللحظة سيدة ترتدى ثوبا خفيفا من ثياب الصيف ، ووراءها طفل يتعثر فى مشيته ، وهى تتابع خطواته بنظرة تفيض افتئانا .

فلما صارت امامهما ألقت نظرة سريعة على عمر وحمدوش ، فاذا بوجهها ينقبض انقباضا غريزيا ، ثم حولت عينيها عنهما ، غير ان عمر أحس بما فيهما من انقاد قاس .

سأل حمدوش صاحبه بصوت خافت :

— أرايت كيف نظرت إلينا ؟

— رأيت ، فماذا ؟

— أنا يستحيل على أن أطيق هذا . لن ارضى فى يوم من الايام ان ينظر الى أحد هذه النظرة .

قال ذلك وقد علت نبرة كلامه .

— انى هنا فى بلدى ؟ ولاجعلنهم يدفعون ثمن هذه النظرة .

وصمت الاحمر وقد اربد وجهه .

ان ذلك كله يزعج عمر . انه لا يشتهى الآن ان يدخل فى اى حديث . كان يقرأ أمامه ، على الطرف الثانى من البركة ، كلمات كتبت بأحرف كبيرة خرقاء : « السوفيت فى كل مكان » . ان هذه الكلمات المكتوبة يرجع عهدها الى عدة سنين خلت ، وقد سبق لعمر ان رآها هنالك . ولا تزال الى الآن . ان القطران الذى كتبت به قد ابيض . وظل عمر يقرأ هذه الكلمات ثم يقرؤها ويقلبها فى رأسه ويفكر فيها ويحلم .

سأله الاحمر وهو يضرب الارض بقدمه :

— ولكن .. أنت .. ما رأيك أنت ؟

فصحا عمر من تأملاته ، وفهم ان معنى سؤال كهذا السؤال هو التالى : « أنت .. ماذا تنوى ان تفعل ؟ » .

فتفكر فى الاحمر مستطلعا ، قائله ان يراه على هذه الحال .

— رابى انك تضايقتنى ، وانك لن تقوم بأى عمل نافع ما ظلمت تريد ان تمضى الى العراق وحدك ، وانك أيضا لن تجنى شيئا من محاولة جرى اليك بالقوة ، فأنت بذلك تضع وقتك سدى . اذهب وافعل ما يروق لك ، ولكن اتركنى وشأنى . ورأى من جهة اخرى اننى لست أنا محل اهتمامك فى هذه القضية ، فانا اعلم أنك لا تؤمن انت نفسك بما تقول ، وانك انما تستدرجنى الى الكلام من أجل ان تصل الى شيء من الايمان .

— مصاحك .

— قل ما تشاء . لقد سألتنى رابى فبسطته لك . فلا تضجرنى بعد الآن بأسئلتك . ودعك ، خاصة ، من محاولة جرى اليك ، فذلك جهد ضائع ، وهأنذا قد انذرتك .

كان حمدوش يتسم ابتسامة خفيفة لا ترى ، وقد تاه نظره . فاضطرب عمر ، ان قلعا خاطفا قد قام فى رأسه ، فدقعه عمر عنه . ما عسى يستطيع الاحمر ان يصنع به ؟

غير أن حيرة مبهمة تغزو نفس عمر ، ثم لا تبارحه رغم ما يقوم به
من جهد لطرد تلك الأفكار من ذهنه .

غمغم حمدوش يقول بهيئة الطفل العنيد :

— اسمح لنفسى بأن اعتقد أنك ستغير رأيك فى ذات يوم .

وستتذكرنى عند ذلك وربما يكون الاوان فى تلك اللحظة قد فات .

— دعك من هذا الحزن كله ، اضحك قليلا . الايام آتية .

فقال الاحمر فى خشونة :

— يعجبنى ان اكون كما انا .

ونفض .

فنهض فى اثره عمر ، وتابعا طريقهما بحيث يدوران حول الاسوار

ليدخلوا المدينة .

فلما صارا فى الطريق الكبير غشاهما التراب الابيض الذى كانت

تغوص فيه السيارات وهى تجرى بسرعة . هذه ضاحية ثرية حافلة

دخل الصديقان المدينة ، فاستقبلتهما الحرارة الخائفة التى

تنشرها الجدران الحامية . وهبط الليل .

حل تشرين الاول . ثم حل تشرين الثانى . لم ينقض الصيف ، ولا يزال قيظهُ مشتعلًا . استمرت الحياة فى الكهف على حالها لم تتغير ، المصنع يغوص فى الضجر والسأم رغم وفرة العمل ، ورغم الجلبسة الابدية التى لاتنقطع . كان حمدوش لا يزال يتغيب كثيراً ، وكان ذلك يثير فى شول تعليقاته الغضبية .

فى يوم الاثنين ذاك ، كان جميع العمال يتحركون صامتين ، غير ان بهم تلك الشراسة وذلك الاعياء المألوفين فى كل صباح من اصباح ايام الاثنين . ومرة أخرى لم يكن حمدوش قد أتى .

قال ما حى بوغان شاتما ، حين مر بالمصنع فى منتصف النهار :
- ما الذى جرى له أيضا ؟

فاجابه شول ساخرا :

- كان قى قصف ومجون .

لم يصدق عمر هذا . وأمره المعلم فى حدة ان يمضى اليه مستظلاً أنباءه فلما دخل عمر الى مسكن حمدوش استقبله صاحبه فى حماسة فكان رؤية الفتى تخفف عنه . وقد لا حظ الفتى منذ النظرة الاولى ما كان فيه صاحبه من اضطراب ، فلم يلق عليه اى سؤال .

نظر عمر الى صديقه . كان حمدوش يسير فى طول الفرفة وعرضها وقد وضع على كتفيه معطفه الواسع الكالح ، وفيما هو يذرع الفرفة على هذا النحو كان يلقي على عمر نظرات غير مألوفة . انه بوجهه العابس ولحيته التى لم تحلق منذ اسبوع ، أشبه بسجين . ثم أخرج من جيبه قطعة من مشط ، وتوقف عن سيره ، فجلس على حافة الصندوق الخشبي ، وأخذ يفكك شعره الاشعث العنيد الحصل ، دون ان يولى صاحبه انتباها .

كان الزقاق الصغير المتاخم لمسكن حمدوش صامتا مقفرا حارا . فاذا بهذا الصمت نفسه يخيم فى المسكن أيضا ، بينما الاحمر يصنف شعره الكث بضربات صغيرة ، مشعث الرأس كالح الوجه لا تعبر هيئته عن شيء .

قال عمر يسأله :

— كيف الاحوال يا حمدوش ؟ لقد سأل المعلم لماذا لم تأت الى العمل ؟

فاجاب حمدوش

— مسألة صعبة . هذه أول مرة أرتكب فيها سرقة ...

وضحك . ثم أضاف :

— تعوزنى العادة .

كان يتكلم كمن يهذى . لم يكن يمزح ، ذلك واضح فى قسماته المحمومة .

— مسندس اوتومايتكى . هه ، ما رأيك ؟

وكان عمر يرقبه دون أن يفتح فاه بكلمة .

— ولكننى أوشكت أن يقبض على .

كان واضحا أن الاحمر يقول الحق . وقامت فى نفس عمر رغبة قوية فى أن يتحداه . ولكن لا ... لن يقول له « انه لا يصدقه » ، لأن الحقيقة التى ينتظر أن يسمعها لا يطبق احتمالها .

شيء لم يكن قد نجمه الى ذلك الحين يتكشف الآن لباصريه : هو هذا الهوى الجامح الحى المحرق الذى يسكن نفس حمدوش .

ومضى عمر يتكى بكوعيه على النافذة ، وظل يرقب صديقه صامتا . لا يزال الاحمر يفكك شعره الحرون . قال وفى شفثيه ابتسامة

ملتبسة :

— هوه ! لا تبحث ! ليس السلاح هنا !

ثم انطلق يضحك ضحكة صغيرة متقطعة .

— فى رأيك انت ان ما فعلته ليس بالفعل المحمود ، اليس كذلك ؟

ولكن عمر ظل صامتا لا يجيب . قال حمدوش وهو مدير اليه ظهره :

— قل انه ليس بالفعل المحمود ، اذا كان هذا هو رأيك ...

فحاول عمر أن يجيبه فقال :

— ليس هذا ما أفكر فيه ...

— قيم تفكر اذن ؟

فشعر عمر بمزيد من الارتباك ، انه يجد عناء كبيرا فى استجماع افكاره . قال :

— لست ألومك على شيء

— فقيم هذا الوجه المكفهر اذن ؟

— ستصبح وحيدا ...

— هذا لن يبدلنى كثيرا .

- سينصرف الناس هناك .
فحاول حمدوش أن يضحك ، لكنه لم يستطع . ولم يزد وجهه
الأسود .
— أنت تؤثر الوعظ ، لقد علموك أن تحب الكلام يا عمر .
— ما يدفعك إلى قول هذا ؟
— أنى أعرف ذلك .
قال حمدوش ذلك وهو منحني قليلا ، يشبه أن يكون وضعه وضع
حيوان محاصر .
— القول أجمل من الفعل واسهل ،
ثار عمر وقال :
— أنا ذاهب .
فدهش حمدوش . فأدرك عمر عندئذ مافى سلوكهما من غرابة .
وتمتم الأحمر يقول بصوت خافت :
— لسوف تشكرنى فى يوم من الأيام .
وشزر عمر مرة أخرى ، وقد أثقل جبينه بالفضول والتمتع بياض
عينيه التماع جوف انصدف .
— أشكرك على ماذا ؟
— ستفهم ذلك فيما بعد .
ثم عادت تلك الابتسامة المشنجة نفسها فظهرت فى وجهه .
أدرك عمر أنه لم يبق له ما يفعله هنا ، فأتجه نحو الباب ، غير أنه
لقى على صديقه نظرة أخيرة ، وهمت أن تخرج من بين شفثيه كلمة
مصالحة ، لكنه حبسها ، وانصرف . ولم يلتفت إليه حمدوش أثناء
ذلك .
فلما عاد إلى الكهف قال أنه لم يجد الأحمر فى بيته . فهتف شول
شامتا :
— يا للفاسق الذى لا يعرف غير اللهو والمجون !

كان عمر قد قرع من طعامه ، فنهض يريد أن يذهب إلى الصبيان الآخرين اللذين كانا يلعبان لعبة « الخف » ، بينما كانت الجدران والقبة ترجع ضحكاتهما وصيحاتهما ، فاذا به في هذه اللحظة يهتز اهتزازا قويا من ضربة هائلة بقبضة يد هوت على ظهره ، وثلتها على الفور ضربة ثانية تقطعت من هولها أنفاسه ، ووقع على الأرض من شدة الألم ، فرأى حمدوش يتفرس فيه ، فقال له في أنين :

— أأنت ضربتني ؟ ماذا صنعت لك ؟

فاذا بحمدوش يبصق عليه . فصاح عمر :

— ماذا بك ؟

ثم أطلق من صدره آهة توجع ، وأمسك ظهره إلى أحد الأنوال ليستطيع أن يتنفس .

فلما رأى حمدوش ضامتا ، أعول يقول له :

— ماذا أصابك ؟

فاذا بحمدوش يهجم عليه ، ويقبض على حلقه في وحشية ، وينفخ

في وجهه قائلا :

— لأرسلك إلى التمر .

وأخذ يهزه هزا بلع من القوة أن انفتى أحسن عظام عنقه تفضقض بين يديه . وأراد أن ينتزع نفسه من قبضة يده ، فاذا بالأحمر يهوى بها على وجهه ، في لطمه طاش لها صوابه ، وأخذ الدم يسيل من فمه .

— تريد أن أقول لك ماذا صنعت ؟ الصوف الذي كان عليك أن

تهينه لي ، أين هو ؟ أسخر مني ؟ لاقتلتك

قال حمدوش ذلك وهو يلقي عليه نظرات هاذية .

وأحسن الصبي بمذاق الدم في فمه حامزا ، فمسحه بيده على نحو إلى دون وعي ، واقعى يبحث عن شيء عسى أن يعثر به على الأرض ثم نهض وفي قبضتي يديه قضيب من حديد ، رفعه فوق رأسه ملوحا به ، وصاح يقول لحمدوش :

— اقترب مني أن استطعت يا حمدوش .

كان عمر يسمع خفقان قلبه ضربات قوية متباعدة ، وكأن تنفسه قد

وقف . ان برداً كالثلج قد استولى عليه .

امتقع وجه حمدوش . وقال :

— أترك هذا .

ثم أختنق صوته .

حدث عمر نفسه قائلاً : « لقد خاف » ، ثم هوى بالقضيب

الحديدى الثقيل بكل ما أوتي من قوة ، لا يعرف أين تقع الضربة .
فاذا بحمدوش يشن أنه طويلة غريبة ، ويتهاوى على الأرض تحيط به
مكاب الغزل وتوثقه .

فقفز شول عن توله ، ووثب على عمر يمسك به من الكتفين ،
وصاح متلعثماً :

— يا شقى ، يا شقى ، يا شقى ...

لم تسغه قريحته بكلمة أخرى ، غير أنه كان كلما نطق بحرف من
هذه الحروف لطم السبي على رأسه لكمة ، وقام الأحمر في هذه
الحظة ، فاذا هو يمزق القميص الذى كان يكسو لحم عمر ...
يمزقه بحركة واحدة من أعلاه الى أدناه . ثم دق وجهه بقبضة يده ،
وهشم أنفه فأخذه الدم يسيل منه ، وظل يضرب ويضرب .. كانت
عيناه عيني مجنون . وكان فى عينيه من الظمأ الواضح الى القتلى
ما جعل الفتى يصيح بالمحائكين وهو يحس بالخطر احساساً عجيباً :

— والآن ، اقتلانى ، اقتلانى .

كان مقتنعاً بأن كل احتجاج لايجدى ، وأن كل حركة يحاول أن يقوم
بها دفاعاً عن نفسه لن تنفعه . وفكر فى عكاشة فتذكر هذه الفكرة
من افكاره : « فى بلادنا ، اذا استطاع الانسان ان يحيا ، وأن يبقى
حياً ، فقد انتصر » .

وصل ماحى بوعثان دون ضجة ، ويده مضمومتان فوق بطنه .
ان الانوال واقفة ، كلها .

وان وجوه المحائكين مخيف منظرها . وكان المعلم قد هبط درجات
السلم قبل أن يلاحقاً احد من العمال حضوره . فوقف فى وسط
المصنع . وأخذ ينظر الى العمال واحداً بعد واحد وهو يقلب ابهامى
بديه . فلم يخطر ببال احد ان يوجه اليه تحية .

وكرر حمدوش على عدوه مرة أخرى بفريرته ، فلما رأى ماحى
بوعثان سقطت يده ، وجاء المعلم اليه يملأ المكان كله ، وأخذ يكيله
بنظراته . وهرع عمر ، مرتعشاً دامى الأنف والدم ، فاقترب منه
ونمسك بذراعه . انه لا يسمع شيئاً من الكلام الذى يقال ، كأنه أبله .

سأل ماحي بوحنان وهو يميل برأسه الى جهته :
- هو ؟

فقال له شول -

- نعم .

فأمسك المعلم بأذن الصبي فقرصها ، وهو يتمايل على نفسه ثم
جعل يحجره الى أن وصل به الى أول الدرج . لقد هدأت الجلبة أثناء
ذلك ، واستأنفت الانوال حركتها الصماء .

قال ماحي بوحنان لعمر :

- اذهب . . . ولا ترني وجهك في هذا المكان بعد اليوم .

لم يعرف عمر كيف صعد درجات السلم ، ولا كيف اجتاز الشارع
قدما حتى وصل الى عين الماء . لقد لاحظ أثناء خروجه عددا كبيرا من
المستظلمين قد ازدحموا امام الكهف واضعين وجوههم على مربعات
الشباك ، فلما رأوه حاولوا أن يسألوه عما حدث في الكهف ، ولكنه
أفلت منهم .

حتى اذا وصل الى عين الماء أخذ يغسل وجهه . وبصق ، فاذا
بسنين تسقطان من فمه . فشعر حين رآهما بخنق شديد ، وصعدت
الدموع الى عينيه .

ما ان طلع الفجر حتى كانت الجارات تتفرق في الفناء ، أو تستقر عند عتبات الغرف ، أو تضطرب في المطبخ المشترك تغسل الأطباق التي بقيت من الليلة البارحة . ان جلبة آخذه في التزايد تصحب هذه اليقظة ، فالاحاديث تكثر والاطفال يغزون الاروقة عصابات ، ونشاط طافح يجري في الدار الكبيرة من مكان الى مكان ، وسط صمت الساعات الاولى من النهار وهدوئها .

النساء منهمكات في أعمالهن ، وقد شمرن اطراف غلائلهن وعلقنها بالحزام ، وأخذت سراويلهن العريضة تصطقق بين السيقان . انها لمخلوقات عجيبة ، لا تعرف الراحة ، ولا تنقطع عن الصياح لحفلة الا لتضرب اولادها ، ثم تذهب وتجيء في طول الدار وعرضها مشغولة مثرثرة .

كانت جهود عمر متركزة كلها على رغبة واحدة : هي ان ينام . كان يصفي الى احاديث ، ويتعرف اصواتا ، ويسمع ضججات يسند الى كل منها معنى . وتبعثر منذ تلك اللحظة فلم يمكن ان يغمض له جفن .

ان دار سبيطار لم تتبدل . غير انه اليوم يعرف قيمة الاشياء التي تجيء وتذهب والاشياء التي تبقى .
- لقد نام وهو صبي ، اما الان فانه لا يصحو طفلا بل رجلا يقابل قدره وجها لوجه .

في تلك الليلة البارحة ، حين رآته أمه عيني يدخل البيت وهو على تلك الحالة التي يرثي لها ، أصابها في أول الامر رعب ، فاذا هي ، من قبل ان تعرف ماذا حدث ، تأخذ تولول ناحية نادية .

- هاهاى . هاهاى . بنى . ماذا صنعوا يا بنى .

فلما قص عليها عمر الخبر ، قالت تحلف :

- والله لا قلن عيونهم .

وأخذت تتوجع وتتأوه في عنف .

- ابق هنا . لسوف أريهم كيف تكون الاساءة الى عيني وابنها . وظلت عيني تصفى الى كلام ابنها حتى فرغ من حكاية القصة كلها ،

فهرعت عندئذ الى الرواق الذي يطل على الفناء ، فصاحت تقول
لجميع سكان المنزل :
- أنظروا ايها الناس ماذا فعل اعداء الله بابنى .



نهض عمر وخرج ، فلم تقل له أمه شيئاً حين رآته يذهب .
أراد ان يتجول فى الشوارع كما كان يتجول من قبل . كان يترأى
له حتى ذلك الحين ان كل شيء فى الحياة واضح ، وان كل شيء فى
الحياة بمكانه . غير ان هذا النظام الاعلى قد اضطرب الان . أهو
اضطراب فى نفسه ، أم فى المدينة ، أم فى العالم كله ؟ انه لا يعرف
ذلك . كل ما يعرفه هو ان الامور ليست كما كان يظن . كان فى
صدره شيء ينقبض . انه يسير وهو فيما يشبه الحلم . حركة
الشوارع تصل اليه ضعيفة ، ولكنها فى الوقت نفسه تطيش صوابه .
انه يسير فى حذر كأنما هو يخشى أن تحل كارثة من الكوارث على
حين فجأة .

جمهرة المتسولين الغائرة وجوههم ، الداوية عيونهم ، لا تزال هى
نفسها تملأ المدينة . انهم لا ينتظرون شيئاً من احد . يسرون ثم
يقفون ، ولا يبدو عليهم انهم يكثرثون بما يفعلون . وهم يتكدسون
فى بعض الاماكن تكدس اناس يحيطون بميت ، ويلقون على سكان
المدينة نظرات عميقة ساكنة .

تأمل عمر العباء الذى يسمهم فى الارض . لاحظ القلق الذى
يجوف خدودهم ، على انها جوفاء ، ويسن أعراف أنوفهم . وشيئاً
فشيئاً فهم . أين ذهبت القوة التى كانت تتدفق فى كثير منهم يوم
كان حميد سراج يتحدث اليهم فى مقر الشارع الواطىء ؟ وتأملهم
عمر . ماذا حدث أذن ؟ وتذكر المصنع ، والحائكين ، ثم صرف عن ذلك
ذهنه . وفكر مرة أخرى فى حميد سراج الذى لا يزال سجيناً فى
أحد معسكرات الاعتقال ، هناك فى الجنوب .

وفى هذه اللحظة وقع بصره على حلقة من المتطلعين المبهوتين . .
ان امرأة فارغة القامة نحاسية اللون مستطيلة الوجه كانت جالسة
فى وسط الرصيف لا تتحرك ، وقد بلغت اسمالها الرثة من القذارة
ان الناظر اليها بحسبها خارجة من حمام وحل ، وعلى رأسها وكفتيها
مندبل ملطخ لا يقل سواده عن سواد سائر خرقها . ان نظرتها
تثير فضول المارة كأنها صرخة . فالحشد الصغير يحيط بها دون ان
ينطق أحد بكلمة .

وقف عمر على أصابع قدميه متطلعا ، فرأى المرأة كأنها صغيرا مقمطا برئت وسخة راقدًا على الأرض . كانت المسولة واضحة إحدى يديها على قمها ، وهي ساكنة لا تتحرك . وكان الرجال والنساء والأطفال ينظرون إليها ، خرسا لا يتكلمون . ثم اهتز رأسها بحركة خفيفة أزاحت منديلها قليلا ، ومالت إلى الامام ثم قالت بصوت عذب استغفروا جميعا أن يصدر مثله عن هذا التمثال المقدود في خشب :

- الله يحميك يا ابنتي الصغيرة ، لم يحن أجل الموت بعد . وغمرت الرضيع بنظرة حزينة . ثم هزت رأسها ومدت يديها إلى الطفلة فتناولتها ، واستغرقت عندئذ في تأمل الوجه الصغير . كان واضحا أن هذه المرأة تجهل أن جمهورا من الناس يحيط بها ويرقب حركاتها ويلتقط كلماتها . ووضعت شفيتها على الشفتين الصغيرتين البريئتين ، ثم أرقدت حملها البارد الاصفر على الأرض أمامها حيث كان . وفي هذه اللحظة ألقت على ما حولها فجأة ، وهي تضغط على خدها بإحدى يديها ، نظرات تائهة . وأخذت عندئذ تتأوه تأوهات قصيرة ولكنها ما لبثت أن صمتت ، كأنها هي قد غيرت رأيها . وعادت فتناولت يدي الطفل المنطويتين فربت عليهما في حنان . وظلت على هذه الحال بضع دقائق لا تفعل غير ذلك . وظل شيء من اليأس يقرأ في وجهها خلال لحظة ، غير أن السحابة ما لبثت أن تبددت ، فلم يبق منها أثر . ودمدمت المرأة تقول :

- ستفهمينني يا ابنتي حين تبلغين من العمر ما بلغت . وظلت تكلم الرضيع المتلجة مدة طويلة ، في رقة وبلاهة . لم يستطع عمر أن ينتزع نفسه من هذا المشهد إلا في عناء . وردد يقول دون أن يعرف السبب الذي يدفعه إلى ذلك : « فات الأوان . فات الأوان » .

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى دوت في الشارع صرخة ليس فيها شيء انساني . فأخذ الناس يركضون .

جثم الارق فى تلك الليلة على صدره كحيوان مفترس . ثم يكن كل شيء قد نام بعد : فمن الشارع لا تزال تصاعد ضحكات واحاديث ، ومن مسافة بعيدة تترامى الى السمع ألحان شبابة شاكية ، ومن الزقاق الضيق القريب يصل صوت أحد السكارى وهو يحاول أن يكمل غناء أغنية بطيئة حزينة ، ولكن صوته الكثيف الربل ما ينفك يعود الى كلمات بعينها فيتعتها فى عناد :

أصبحت وحيداً منفرداً

لا تصطحبني الا نفسى .

ويتوقف المغنى عن الغناء بعد الكلمة الاخيرة ، فيحسب السامع من طول توقفه أنه قد عدل عن المضي فى غنائه . ولكنه ما يلبث أن يستأنف ترنمه بعد ذلك ، بتلك الكلمات نفسها . . . ان عمر لا يستطيع أن يحصى عدد السنين التى ظل خلالها يسمع هذا الصوت المخمور فى مثل هذه الساعة من الليل . انه محمد شراق يسكو ويحيى يغنى هذا الغناء فى كل مساء :

أصبحت وحيداً منفرداً

لا تصطحبني الا نفسى .

واتسع الصمت . ان كل شيء قد نام الآن . الا هذا الصوت العنيد . انه يظل يثائى وفى نفسه أمل حزين فى أن يصل من الاغنية الى ختامها . جلس عمر الى مرقده ، وتأمل السماء من خلال الباب المفتوح . ان ضياء هذه الليلة يشبه أن يكون ضياء نهار . ومضى عمر يجلس على الرواق المتاخم للفرقة ، وراح يعد النجوم الغارقة فى بياض كانه اللبن ، ثم لم يستطع أن ينتزع نفسه من فتنة هذه الليلة الساطعة كل هذا السطوع .

وحدق بعينين واسعتين مفسولتين ، الى الاكتاف الكثيفة من المباني المنتصبة على مقربة من البيت ، ولكن نظراته سرعان ما عادت الى النبع المترقرق ، السماء ، حيث تصطفق النجوم ، واذا هو يقول مخاطباً نفسه : « لم أعد أدري من أنا . . »

انقطع شراق عن الغناء ، فهو يتكلم الآن بصوت رصين خافت .

فكر عمر في عكاشة ، وتساءل أين عساه يكون ، في هذه الساعة ،
ذلك الحائك الذي آثر ان يهجر النول ، وأن يحمل عصا المسافر
وجرابه .

وفكر عمر بعد ذلك في حميد سراج . لكان صوت شعب بأسره
قد سكت ، منذ سجن حميد سراج في معسكر من معسكرات
الاعتقال . أصبح المرء لا يرى بعد ذلك الا جماهير خرساء ، خائفة .
أصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس بخطر كانت جاهلة
به . وازداد حذر الناس .

شعر عمر برغبة تسرى في جسمه بغثة . ان برودة نافذة قد
هبت في الفضاء . فحمل عمر المخدة التي كان متكئا عليها وعاد الى
الغرفة التي تترجع فيها أنفاس أخته وأمه مطردة هادئة . واستلقى
على مرقده وغفا ، تسهر عليه هذه الليلة الراكنة الجميلة .

حتى اذا صبحا في القد أحس برغبة مفاجئة في ان يمضي الى
صفصف يستحم في النهر الصغير . انه لم يذهب الى هناك منذ مدة
طويلة ، ربما منذ سنتين . فما أشد فرحه بالعودة الى الريف .
شهر تشرين الثاني يشعل شموعه في ذروة السماء . والارض
الراقدة تهتز في هدوء ورفق ، خفيفة خفيفة ، كأنها تهم ان تذوب
دخانا . النهر يتسع في هذا الموضع ، ويجرى كسولا تحت ظلال
أشجار البطم الكبيرة ، بين كثث الأعشاب المتوحشة . وفي الفضاء
ترين طمأنينة رحيبة تخددها ضجرات بعيدة تقرر الهواء . ولكن اذن
عمر غارقة في الهمهمة الغامضة ، فما يدرك منها شيئا . لقد رقد
على العشب الخضر بعد ان قلل يخوض في الماء مدة طويلة ، فهو
بين الغفو والصحو ، واليزان تتصايح من حوله في كل مكان ،
فصريرها يذوب في الفضاء الرنان الذي يغمره ، ثم ينسكب في
أعضائه ، فيخدر شعوره .

والبردت السماء . وعاد عمر الى الماء . وفجأة أشد ذلك
الاهتزاز العنيف الذي كان يقتحم الهواء منذ لحظة ، ثم اذا هو
يصبح ضجة تملأ الفضاء . لكان هذه الضجة تخرج من أعماق
الارض . وما هي الا لحظة حتى بدأ ان الافق هو الذي يهتز .
فوقف عمر في الماء واصاح بسمعه ، ثم خرج من النهر بعد بضع
ثوان .

فما كاد يخرج حتى رأى سيارة من سيارات النقل عليها جنود
تقف في الطريق على مقربة من النهر ، ثم يشب منها أحد الجنود ،

ويقترّب . انه في ريعان شبابه ، هذا الرجل الطويل ، النحيل قليلا ، الضيق الكتفين . وها هو ذا ينظر الى عمر بعينين زرقاوين مبتسمتين . ان في سمات وجهه تعبيرا عن صراحة كصراحة الاطفال ما تلبث ان تشير في النفس المودة والمحبة . ومما يزيد ذلك التعبير وضوحا هذا الشعر الاشقر المقصوص حول الرأس كله ، الا خصلة متهدلة على الجبين . لاشك أبدا في أنه اجنبي .. ولكن ليس بينه وبين الاوربيين القاطنين في هذه البلاد الا شبه ضعيف . لم يقل الرجل شيئا ، واكتفى بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشيكولاته مع راية صغيرة عليها نجوم . غير ان رفاقه الذين ظلوا في السيارة لم ينقطعوا عن الجمجمة والصحاح فرحين : « هالو .. هالو .. » ولا عن التلويح للفتى بإشارات تعبر عن الصداقة . وكان عمر يلاحظهم مبهورا ويلاحظ الرجل الواقف أمامه ، ناسيا أنه عار كل العرى . تناول لوح الشيكولاته من يد الرجل الاجنبي دون تفكير ، ثم هرع الى الماء وغطس غطسة . وانطلقت على الضفة هتافات ، فجرت السيارة تهدر هديرًا يصم الأذان ، وغابت وراء سحابة من الفبار ، تتبعها سيارة أخرى ، ثم سيارات فسيارات ، متشابهة كلها ، محملة جميعها بجنود يلوحون بأيديهم ، وعندئذ ، خلال البرية ، التي يهدر في كل مكان منها ، ويترجع في مكان منها ، الرعد الذي تحدثه أصوات محركات السيارات ، ارتفعت صرخة تقول :

— الا .. مر .. كان ..

فاذا بقلب عمر يثب من صدره في فرح مجنون . ان املا مستحيلا يمسك بخناقه فاذا حلقه يتشنج واذا هو يحس أنه يهم أن يبكي . وخرج من الماء ، فارتدى ملابسه ، وعاد يسير في الطريق المؤدى الى المدينة ، جادا مفكرا ، لا شك أن شيئا هائلا قد حدث في العالم . كان يسير بخطا سريعة ، حتى ليكاد يركض ركضا ، وقد انشدت قامته بسرّوالم طويل أزرق ، ونسترة ضيقة ، وانتصب فوق جسمه الطويل المهيب للتخلع بطبيعته من قبل ذلك ، رأس حاد تتقد فيه عينان صغيرتان سوداوان . أما جبينه المستقيم المنبسط فكان أشبه بأجرة كثيفة قامت فوق الحاجبين تظللهما كثة من شعر خشن . وكانت أجفانه تصطفق على ايقاع سريع ، وكانت نظراته تقفز من شيء الى شيء آخر ، وكان في وجهه تعبير عن جد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا .

تمت

ح

مكتبات

www.library4arab.

مشتراك في روايات الهلال

وكلاء مشتركات مجلات دار الهلال

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroe, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND.

انجلترا :

(اسعار الاشتراك على النصفحة الثانية)

هذه الرواية

النول . هي الجزء الثالث والاخير من ثلاثية
قاتب الجزائري الكبير محمد ديب

وبهذا الجزء تنتهي روايات الهلال من نشر ثلاثية
محمد ديب بعد ان قدمت في الشهرين الماضيين
الجزء الاول وهو « الدار الكبيرة » والجزء الثاني
وهو « الحريق » . وقد احتلت هذه الرواية باجزائها
مكانا بارزا في الادب الروائي المعاصر كله .

ولقد انتب الفنان الجزائري الموهوب ثلاثيته الروائية
باللغة الفرنسية . فالفرنسية هي اللغة التي يكتب
فيها هذا الخبير الجزائري البارز . لانه من الجيل
الذي تربى في ظروف الاستعمار الفرنسي للجزائر .

ولم تعرض هذا الجيل لضغط ثقافي عنيف انتهى به
الى ان يفصل عن لغته الاصلية وهي اللغة العربية .
ولكن محمد ديب مع ذلك ظل مخلصا للروح العربية

الفرنسية . فجاءت ثلاثيته الروائية رغم لغته الفرنسية
تصويرا دقيقا لتعب الجزائر في كفاحه ونضاله
ومشاعره الحقيقية العميقة . واصبحت هذه الثلاثية

جزءا من تراث الثقافة القومي للجزائر الى جانب
جميع ما كتب في الادب المعاصر كله كعمل ادبي متميز
وراق . وهذه الثلاثية الروائية مترجمة الى العربية

بقلم الاديب الكبير الدكتور سامي الدروبي سفير
سوريا في مصر . وقد عرف القراء العرب سامي
الدروبي منذ سنوات بعيدة كمكاتب متقن وواحد من

المعالم البارزين المعروفين في الثقافة العربية المعاصرة .
والمكتبة العربية الحديثة لسامي الدروبي بكثير من
الاعمال الفنية العظيمة التي اختارها وترجمها بعناية

كبيرة . في اللغة العربية . ومن بين هذه الانوار التي
اضافها الدروبي الى تراث المكتبة العربية هذه الثلاثية الروائية

لمحمد ديب . وهي الثلاثة التي يسعد روايات الهلال
ان تقدم اليوم طابعا الاخير الى القراء العرب وبذلك
تكتمل بين ايدينا ترجمة ممتازة لعمل ادبي من

الدرجة الاولى . كتبه فنان عربي بارز فرضت عليه
ظروف الاستعمار ان يخلق بغير لسان آبائه واجداده
وهو اللسان العربي .